جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الإشاريات في سورة النساء
دراسة تداولية

إعداد

د. منى إبراهيم إبراهيم عزام
أستاذ النحو والصرف المساعد
كلية التربية - جامعة المنصورة

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠أكتوبر)
(الجزء الرابع (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

الإشاريات في سورة النساء دراسة تداولية

منى إبراهيم إبراهيم عزام

قسم اللغة العربية، كلية التربية ، جامعة المنصورة ، مصر.

البريد الإلكتروني: *monaabrhem12@gmail.com*

الملخص:

موضوع هذه الدراسة هو " الإشاريات في سورة النساء دراسة تداولية " وهي تعبيرات تُحيل على مكوّنات السياق الاتصالي: المتكلم والمخاطَب وزمان المنطوق ومكانه، وقد تتبعت الدراسة تلك الوحدات اللغوية بالاستقراء ضمن سياقاتها في سورة النساء من خلال: التأشير الشخصي، والتأشير الزماني ، والتأشير المكاني بهدف: إبراز دور السياق المقامي في تحديد مرجعية هذه العلامات المبهمة ، واختبار مقولات الدرس اللساني فيما يخص الإشاريات في نموذج نثري متفرّدٍ هو سورة النساء. وقد اتبعت الدراسة المنهج التداوليّ وانتهت إلى عدد من النتائج منها: أن تحديد الإشاريات و فهمها فهمًا صحيحًا يتطلب استرجاع الظروف التي أدت إلى إنتاج الخطاب، وأن التعابير الإشارية بدت متعالقةً بنيوياً مع الحقول الدلالية الماثلة في سورة النساء، وأن المفسِّرين كانوا على وعي ببِنية الخطاب وبِأُسُس التحليل المنهجي في تحديد مقاصده.

الكلمات المفتاحية: التداولية ، الإشاريات ، نصّ ، سياق مقامي ، سورة النساء.

Indicative signs in Surat An-Nisa, a pragmatic study

Mona Ibrahim Ibrahim Azzam
Department of Arabic Language, Faculty of Education, Mansoura .University, Egypt
Email: monaabrhem12@gmail.com

Abstract:

The subject of this study is "deixis in Surah an Nisa', a pragmatic study" which are expressions that relates to context: speaker, addressee, time of the spoken, and its place. This study has followed such linguistic formulas by Induction within their context in Surah an Nisa' through: person deixis, temporal deixis, and spatial deixis to: highlight the role of situational context in determining the reference of those ambiguous signs, and testing assumptions of linguistics regarding deixis in a unique prose text which is Surah an Nisa'. The study has followed the pragmatic approach, and came to some conclusions, such as: that detecting deixis and understanding them in the right meaning requires recalling the circumstances which led to the discourse, that deictic expressions manifested as a whole structure with the semantic fields present in Surah an Nisa', and that the interpreters had been aware of the discourse composition, and the foundations of systematic analysis in determining its aims.

Keywords: Pragmatic , Deixis, Context, Situational Context , Surah An Nisa'.

المقدمة :

بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ وعلى آلِهِ الأطهارِ وأصحابِهِ الأبرارِ صلاةً باقيةً بقاءَ الليلِ والنهارِ ، وبعدُ

فموضوع هذه الدراسة " الإشاريات في سورة النساء دراسة تداولية " ومعلوم أن الخطاب اللغوي بنية معقدة فهو عالم من الرموز والإشارات والأنساق ، ومن جهة أخرى رسالة ذات غرض تُوَجَّه إلى متلقٍ أو متلقِين وتُحدث أثرًا ، وتُعدُّ الإشاريات مُرتكَزًا أساسًا من مرتكزات بناء الخطابات والنصوص وتتمثل في عدد من الوحدات القياسية كضمائر الحاضر، وظروف الزمان والمكان وقد تظهر في وحدات غير معتادة خاصة في التأشير الزماني والمكاني .

وتعود أسباب اختيار هذه الدراسة إلى :

- حضور الإشاريات بأنواعها المختلفة في سورة النساء بغنًى وثراءٍ وانطواؤها على أبعاد خطابية يمكن لمُحلِّل الخطاب من خلالها أن يختبر كلَّ المقولات اللسانية في هذا الموضوع .
- خصوصية الخطاب القرآنيّ في ارتباطه بأسباب النزول ثم تعميم الأحكام، وما يحمل من مقاصد ودلالات لا يمكن كشفها إلا في سياقها مما يجعله مجالًا خصبًا للدرس التداوليّ.

وتتمثل أهمية الدراسة في : تقديمها دراسة تطبيقية تداولية في خطاب أدبي متفرد ومحاولتها اقتراح مقاربة منهجية لسانية توضح دور السياق الخارجيّ في توجيه عائدية الإشاريات وتصلح للتطبيق على الخطابات النثرية .

وتتمثل أهداف الدراسة في :

- رصد العلامات اللغوية المعروفة تداوليًّا بالإشاريات وتحديد مرجعياتها وفقًا للسياق .

- اختبار مقولات الدرس اللساني فيما يخص محور البحث التداولي " الإشاريات " ودورها في بناء عتبات نصّيّة تساعد في توالد الخطاب وانبثاقه .
- إبراز دور المقام في تفسير المرجعية وإظهار المقاصد الحقيقية لهذه العلامات .

وتقتضي طبيعة الدراسة اتّباع المنهج التداوليّ الذي يُعنى باستحضار عناصر الحدث التخاطبي وفهم العلاقات بينها من مستعمِلٍ (متكلم – مخاطب والعلاقة بينهما) ، وزمان الخطاب، ومكانه، وملابساته وكلّ ذلك في ضوء الأثر المباشر للمقام وسياق الحال على إنتاج الخطاب وصولًا إلى المقاصد الحقيقية والمرجعية المرادة للإشاريات فلا يبتعد كثيرًا عن المنهج الوصفيّ، وقد اقتضى ذلك بعض الإجراءات المنهجية نحو استقراء مواضع الإشاريات والتحليل الدلاليّ لتلك الصيغ اللغوية في ضوء سياقاتها .

الدراسات السابقة :

يتسم مجال دراسة الإشاريات بالندرة والجِدّة والمعاصَرة ، والدراسات المتخصصة فيه قليلة ومنها :

- الإشاريات في القَصَص النبويّ دراسة تداولية ، خبراني (أمل حسين) ، المجلة العلمية المحكمة ، كلية الآداب – جامعة السويس ، العدد ١٧ ، أكتوبر ٢٠١٩م .
- الإشاريات في سورة مريم دراسة تداولية ، القباطي (إفهام عبد الحافظ) ، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية ، العدد ٨ ، ديسمبر ٢٠٢٠م .
- الإشاريات التداولية وتجلّياتها في التفسير نماذج من سورة الأنفال ، توفيق (أحمد محمود زكريا) ، ضاد – مجلة لسانيات العربية وآدابها ، المجلد ٢ ، العدد ٣ ، أبريل ٢٠٢١ .
- الإشاريات في اللغة العبرية دراسة تداولية ، فاضل (زينب عباس) ، حمد (حامد مرهون) ، مجلة الآداب ، ملحق (١) ، العدد ١٣٩ ، كانون الأول ١٤٤٣ هـ – ٢٠٢١ م .

- الإشاريات الشخصية في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور " ٢٨٠هـ " دراسة تحليلية ، الموسوي(زكى فليح حسن) ، حسين (ندى محمد) ، مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث ، المجلد ٢ ، العدد ١٤ ، نوفمبر ٢٠٢٢ .

وتتمثل جِدّة هذه الدراسة في أنها دراسة تطبيقية في سورة النساء ؛ إذ لا يَبين المراد من تلك الصيغ اللغوية المعروفة بالإشاريات إلا ضمن سياقها ؛ فإحالاتها المذكورة رهن بسورة النساء هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تختص السورة الكريمة بتكاليف كثيرة من التعطيف على النساء والأولاد والأيتام، وحفظ أموالهم عليهم، وإيصال حقوقهم إليهم، والأمر بالطهارة والجهاد والصلاة والدية، وتحريم المحارم وتحليل غيرهن وغير ذلك من مكارم الأخلاق والسياسات التي يُناط بها صلاح المعاش والمعاد وقد جعل ذلك من هذا الخطاب المُحكَم المتفرّد مسرحًا للتعابير التأشيرية تنقّلَتْ فيه من مقامٍ دلاليّ لآخر فكانت بمثابة عَتَبات نصّيّة ساعدت في تدرُّج الخطاب واستمراره.

وتسير خطة الدراسة على النحو الآتي :

- المقدمة : بها أسباب اختيار الموضوع ، وأهميته، وأهدافه ، والمنهج المُتَّبَع ، والدراسات السابقة ، وخطة الدراسة .
- التمهيد : الإشاريات لغة واصطلاحا .
- المبحث الأول : التأشير الشخصيّ "Person deixis" في سورة النساء وبه عدة مطالب :
- أولا : الطبيعة الافتقارية للضمير بين القدماء والدرس الحديث .
- ثانيا : ضمير الشخص الثاني – المخاطَب – ودور المقام في تفسيره .
- ثالثا : ضمير الشخص الأول – المتكلم – ودور السياقَيْن العَقَديّ والتفسيريّ في تفسير عائديته.

- المبحث الثاني : التأشير الزمانيّ "Temporal Deixis" في سورة النساء وبه عدة مطالب :
- أولًا : الإشاريات الزمانية بين القدماء والدرس التداوليّ .
- ثانيًا : الزمان الكونيّ في سورة النساء .
- ثالثا : الزمن النحويّ في سورة النساء .
- رابعا : الزمن والجهة .
- المبحث الثالث : التأشير المكانيّ "Spatial deixis" في سورة النساء وبه عدة مطالب بعد التوطئة :
- أولا : أسماء الإشارة .
- ثانيا : الظروف المكانية .
- ثالثا : اسم المكان .
- رابعا : الصيغ المكانية المجردة .
- خامسا : الظروف المكانية بذكر " في " أو بتقديرها .

الخاتمة : وبها أهم النتائج .

قائمة المصادر والمراجع .

واللهَ أسألُ النفعَ والقبولَ.

التمهيد :

الإشاريات لغةً واصطلاحاً

يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في "(شور) : الشين والواو والراء أصلان مطّردان : الأول منهما إبداء شيء وإظهاره وعرضه ، والآخر : أخذ الشيء"[١] ويقال " أشار إليه وشَوَّر : أَوْماً ، يكون ذلك بالكفِّ والعين والحاجب ... ويقال شوَّرتُ إليه بيدَيَّ وأشرتُ أي لوّحتُ إليه وألحتُ أيضًا وأشار إليه باليد : أومأ وأشار عليه بالرأي ، وأشار يُشير إذا ما وجّه الرأي "[٢] والمُشيرة : الإصبع السبّابة[٣].

ويعدُّ الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) " الإشارة " أحد أنواع التعبير غير اللغوي ويستعملها لمثل معناها اللغوي السابق يقول : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقُص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة، ثم العَقْد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نِصْبة والنِّصبة هي الحال الدالّة التي تقوم مقام تلك الأصناف .. وأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف "[٤] .

---

١ – ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا) ، مقاييس اللغة : ٣ / ٢٢٦ (شور) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل – بيروت ، د.ط ، د.ت .

٢ – ابن منظور ، لسان العرب : م٥ / ج٤٦ : ٢٣٥٨ (شور) ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف – القاهرة ، د.ت .

٣ – الفيروزآبادي ، القاموس المحيط : ٦٧/٢ ، فصل الشين باب الراء ، دار الجيل – بيروت ، د.ت .

٤ – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، البيان والتبيين : ٧٦/١ – ٧٧ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

أما اصطلاحًا فمفهوم الإشاريات بعيد من معناها اللغوي فهي علامات لغوية " لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي لأنها خالية من أي معنى في ذاتها بالرغم من ارتباطها بمرجع إلا أنه غير ثابت "[١] .

ويطلق على الصيغة اللغوية المستعملة للإشارة مصطلح التعبير التأشيرى Deictic expression وكذلك الإشاريات indexical وهى أُولى الصيغ التي ينطق بها الأطفال الصغار وتُستعمل للإشارة إلى :

- الأشخاص من خلال التأشير الشخصي Deixis Person – ضمائر الحاضر خاصة – (أنا ، أنت).
- المكان من خلال التأشير المكانيّ Spatial deixis (هنا ، هناك ، هذا) .
- الزمان من خلال التأشير الزمانيّ Temporal deixis(الآن ، آنذاك)[٢].

وتُصنَّف الإشاريات ضمن تداولية الدرجة الأولى ويُذكر أن بيرس (Peirce) صاحب تعبيرَي الإشارة والعلامة الإشارية index كما يطلق عليها المُعَيِّنات

---

١ – عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية : ٨٠ ، دار الكتاب الجديد – بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

٢ – جورج يول ، التداولية : ٢٧ ، ترجمة د / قصيّ العتابي ، دار أمان – الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م ، وينظر : الأزهر الزناد ، نسيج النص ، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا : ١١٦وما بعدها ، المركز الثقافي الوطني ، الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

déictiques والقـــرائن المدمجـــة أو الواصـــلة embrayeurs والمؤشـــرات indicateur والقرائن الإشارية[١] shifters.

وفى إطار حرصهم على ربط مرجعيتها بالسياق المقامي خاصة يفرّقون بينها وبين التعابير الإحالية المرتبطة بالسياق اللغوي فالإشاريات " تشمل كلّ ما يشير إلى ذات، أو موقع، أو زمن إشارة أوليّة لا تتعلق بإشارة أخرى سابقة أو لاحقة؛ فيمثل العنصر الإشاري مَعلمًا لذاته لا يقوم فهمه أو إدراكه على غيره وتمثل العناصر الإشارية فيه جملة الذوات التي تكوّن العناصر الأساسية الدنيا في عالم الخطاب وتتصل هذه الذوات مباشرة بالمقام دون توسط عناصر إحالية ... وهى في ذلك تقابل العناصر الإحالية التي ترتبط بالسابق وما يتعلق به من ملابسات"[٢] .

وإذا كانت الإشاريات هي العلامات اللغوية أو التعبيرات المُحيلة على مكوّنات السياق من المتكلم والمتلقي وزمن المنطوق ومكانه فإن التأشير– فيما نرى وإن ساوَوا بينهما في الاصطلاح – عملية يقوم بها منتج الخطاب ويتأولها المتلقي في ضوء السياق والعالم المعرفي المشترك بينهما، إنه يمثل المراد والمرجع الذي أراده المتكلم وتعود إليه العلامة اللغوية وقد يكون مكانًا ، أو زمانًا ،أو شخصًا حاضرًا في مقام التخاطب ،أو معنًى حقيقيًّا أو مجازيًّا كالتعظيم والتحقير أوالقرب والبُعد النفسيَّيْن – على ما سيأتي – لذا يُطلعنا التحليل والتطبيق على وحدات غير قياسية للإشاريات خاصة في التأشير الزماني والمكاني ليُعلم أن لكل خطاب عالمه وملابساته .

---

١ – ينظر : فرانسواز آرمينكو ، المقاربة التداولية : ٣٨ ، ٤١ ترجمة د. سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ، ١٩٨٦ ، جميل حمداوي ، التداوليات وتحليل الخطاب : ٢٢ ، مكتبة المثقف – الجزائر ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٥م

٢ – نسيج النص ، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا : ١١١٥–١١٦ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم التأشير كان واضحًا في أذهان مُحلِّلي الخطاب القرآني وعلى رأسهم المفسِّرون وعلى سبيل المثال نجدهم يقررون أن هذه السورة مكيّة وتلك مَدَنيّة بناءً على أحكامها ووقت نزول الآيات وأسباب النزول وهو تمثيل جيد لمفهوم التأشير المكاني ، يقول القرطبيّ (ت ٦٧١هـ) في سورة النساء " هي مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح .. وقد قال بعض الناس: إن قوله تعالى (يا أيُّها الناسُ) حيث وقع إنما هو مكيّ .. ومَن تبيَّنَ أحكامها علم أنها مَدَنيَّة لا شك فيها "[١] ، بل إن المصطلح يرد عرضًا لديهم غير مقصود لذاته مستعملًا لمثل مفهومه تداوليًّا ، فالآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) عند تفسيره لقوله تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}[النساء:١٤٥] يقول:" وفي كَوْن المنافق في الدرك الأسفل إشارة إلى شدة عذابه "[٢] .

---

١ – الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) : مج٣ / ج٥ : ٥ ، علّق عليه د . إبراهيم الحفناوي ، خرّج أحاديثه د. محمود حامد عثمان ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

٢ – الآلوسي (أبو الفضل شهاب الدين) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ٣ / ١٧٠ ، ضبطه وصحّحه علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

المبحث الأول

التأشير الشخصيّ " Person deixis "

أولا : الطبيعة الافتقاريّة للضمير بين القدماء والدرس الحديث :

يُعرَّف الضمير بأنه الاسم الموضوع لتعيين مسماه مُشعِرًا بتكلُّمه أو خطابه أو غيبته[١] ، ويُعَدّ الضمير عند القدماء من باب المعارف وهو – مع ذلك – أحد المبهمات إذ يفتقر إلى مرجعيّة تفسِّره ويعود إليها ؛ لذا فحكمه أن يجيء بعد ظاهر يتقدمه ويعود هو عليه ، هذا أصله فإن تقدم المضمر في كلامهم فعلى شريطة التفسير كما في قولنا " إنه زيد قائم "[٢] وقد قرن سيبويه (ت١٨٢هـ) بين الضمائر وأسماء الإشارة في الإبهام فقال : " والأسماء المبهمة : هذا وهذان وهذه وهاتان ... وهو وهي وهما وهم وهنّ وما أشبه هذه الأسماء "[٣] بل إن إبهام الضمير تُبنى عليه بعض تراكيبهم الثابتة والنمطيّة أحيانًا من نحو أسلوب الاختصاص وضمير الشأن ، ويأتي مُعلِّلًا بارزًا للمنصوب في تراكيب أخرى نحو تمييز النسبة والتعجب القياسيّ والسماعيّ والمدح والذم ، فالمنصوب في قولنا : لله دَرّه فارسًا وأَكرِمْ به شاعرًا ويالها

---

١ – ينظر : ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) ، شرح التسهيل : ١/١٢٠ ، تحقيق د / عبد الرحمن السيد ، د/ محمد بدوي المختون ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ، وينظر : العثيمين (الشيخ محمد بن صالح) ، شرح ألفية ابن مالك : ١/٢٠٥ ، مكتبة الرشد – ناشرون ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ .

٢ – الزجاجي (– أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٤٠هـ) الجمل في النحو : ١١٧ ، تحقيق د / علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

٣ – سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر ت ١٨٢هـ)) الكتاب : ٢ / ٧٧ / ٧٨ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الأولى ، د.ت .

قصةً وخَبُث رفيقًا الشيطانُ ونعم قائدًا خالدٌ لتفسير الضمير وإزالة إبهامه – على خلاف في قولنا لله دره فارسًا أيزيل إبهام الجملة أم إبهام الضمير .

ويحرص النحاة على توضيح تلك الدلالة المزدوجة الجامعة للتناقض – التعريف والإبهام – يقول ابن الخشاب (ت ٥٦٧ هـ) : " اعلم أن الأسماء المضمرة من قبيل المعارف التي لا يصح تنكيرها ؛ هذا على الإبهام الذي فيها وذاك أن الاسم لا يُضمر إلا بعد أن يُعرَف كلَّ العرفان "[١] ويعي المحدثون إبهامها فيرونها أشكالًا فارغة دون مضمون مادامت لم تدخل السياق[٢] .

وإذا كان ضمير الغيبة يفسره المذكور المتقدم غالبًا أو اللاحق أحيانًا فإن ضمائر الحضور يفسرها صاحبها – المتكلم أو المخاطب – الحاضر في المقام .

وطبيعة الضمير المفتقرة إلى المرجعية وارتباط تلك المرجعية بالمقام تارة وبالملفوظ سابقًا أو لاحقًا تارة أخرى جعلته مثار اهتمام اللغويين المحدثين على اختلاف مدارسهم ؛ فعلماء نحو النص يرونه تعبيرًا إحاليًّا يسهم في اتساق النص عندما ترتبط مرجعيته بملفوظ سابقٍ أو لاحقٍ فيما يسمى لديهم بالإحالة الداخلية Endophora ويتمثل ذلك في ضمير الغائب ، أما ضمير الحاضر فلا دور له في اتساق النص إذ يفسره السياق غير اللغوي فإحالته خارجية Exophora أو مقامية Situation[٣] .

---

١ – المرتجل : ٢٨٤ ، تحقيق علي حيدر ، دمشق ، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .

٢ – ذهبية ، حمو الحاج ، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب : ١٠٨ ، الأمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ٢٠١٢ .

٣ – ينظر : روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء : ١٣٢ ، ٣٢٠ ، ترجمة د / تمام حسان ، عالم الكتب – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

وفي المقابل يعد التداوليون الضمائر من " الإشاريات " deixis وتمثل " الإشاريات الشخصية " Personal deictics وأوضح تلك العناصر الإشارية الدالة على شخص Persson : ضمائر الحاضر الدالة على المتكلم وحده أو المتكلم ومعه غيره مثل " نحن " وضمائر المخاطب ؛ فهي دائما عناصر إشارية لأن مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًّا على السياق الذي تُستخدم فيه ، أما ضمير الغائب فيدخل في الإشاريات إذا كان حرًّا لا يُعرف مرجعه من السياق اللغوي فإذا عُرف مرجعه من السياق اللغوي خرج من الإشاريات[١] ، لذا فإن ضمير الحاضر يتطلب استعماله معرفة سابقة بالهوية بالنسبة لطرفي الاتصال وإن كان ذلك يتم بصورة مباشرة في الحديث أكثر مما يتم في الكتابة[٢] ، تلك الطبيعة التي عبّر عنها القدماء بقولهم " ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة وأما ضمير الغائب فعارٍ عن المشاهدة فاحتيج إلى ما يفسره "[٣] .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الضمير غير الشخصي في نحو it rains في الإنجليزية لا يدخل في الإشاريات " فهو ليس ضميرًا حقيقيًّا true Pronoun يشير إلى بعض الموجودات بل في الحقيقة مورفيم نحوي شاغل لموقع تتطلبه قواعد التركيب الإنجليزي "[٤] ؛ لذا فإنه ضمير مفرَّغ dummy خالٍ من المفهوم يقع في موقع المبتدأ يبعث على إيراده تفضيل التعبير عن الأحداث بواسطة الأفعال والإتيان

---

١ – ينظر : د/ محمود نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٧ – ١٨ ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٦ ، نعمان بوقرة ، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب : ٨٧ ، عالم الكتب الحديث ، جدارا للكتاب العالمي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٩م .

٢ – ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٣٣٣ .

٣ – السيوطي ، همع الهوامع : ٢٦٣/١ ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية – القاهرة ، د.ت .

٥–Formkin , V .& Rodman , R (١٩٩٨) : An Introduction to language Harcourt Brace collage pablishers . U.S.A, P . ٢٠٠

بفاعل واحد على الأقل مع الفعل في التركيب فنقول في وصف حالة الجو مثلا : it's snowing / hailing / etc ، ويسمى هذا الاستعمال في الفرنسية servitude grammatical[1] وهو ما يُعرف في العربية بضمير الشأن الذي يعبِّر عن القصة أو الحكاية أو الموضوع أو الشأن.

ثانيا : ضمير الشخص الثاني – المخاطب – ودور المقام في تفسيره :

أ – الضمائر المتصلة :

تمثل ضمائر المخاطب أحد أقسام التأشير الشخصي الثلاثة ، وتمثل ضمير الشخص الثاني " you " في مقابل ضمير الشخص الأول " المتكلم " I – we " وضمير الشخص الثالث – الغائب – " he , she – it "[2] على تفصيل في القسم الثالث على ما تقدم في هذه الدراسة – وإنما بدأنا بضمائر المخاطب وإن كانت تمثل الضمير الثاني في التأشير الشخصي لأنها الغالبة على نص الدراسة والأكثر استعمالًا.

والضمائر المتصلة منها ما لا يقع إلا مرفوعًا وهو التاء في نحو " قمتَ " والنون في نحو " اذهبْنَ " ياهندات والواو في نحو " اضربوا " و " تضربون " والألف في نحو " اضربا " و " تضربان " والباء في نحو " اضربي " وأنتِ " تضربين " ومنها ما يقع منصوبًا ومجرورًا وهو الكاف في نحو ضربك ومرَّ بك[3] ، وسنعرض لها مجتمعة لورودها في الآيات الكريمة كذلك ولأننا نهدف في المقام الأول إلى إبراز دور السياق في تحديد مرجعيتها ، ذلك الدور الذي يتضح من خلال :

---

١ – ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٣٣٤ .

٢ – ينظر : التداولية : ٢٩ .

٣ – ينظر : همع الهوامع : ١/٢٢٣ – ٢٢٤ .

١ – العالم المعرفي للمخاطبين :

" إذا كان معنى مفهومٍ ما هو موقعه في عالم النص فإن معنى المرجع في الإحالة لغير مذكور exophora هو مكانه في عالم النص مع التركيز على عالم الموقف الاتصالي"[١] ، وهو شأن ضمائر الحاضر ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١] يتحد العالم المعرفي للمخاطبين المتمثل في النظام اللغوي المختزَن في أذهانهم مع السياق اللغوي كذلك في توجيه ضمير الجر المتصل في (عليكم) فالمتكلم – وهو الله جلَّ ثناؤه – " يعني بقوله (عليكم): على الناس الذين قال لهم : ﴿يَاأَيُّهَا النَاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[النساء:١] وإنما قال (عليكم) وهو يعني الذين خوطبوا بالآية ومَن قد مضى من بني آدم لأن المخاطَب والغائب إذا اجتمعا في الخبر فإن العرب تُخرج الكلام على الخطاب فتقول – إذا خاطبتْ رجلًا واحدًا أو جماعة فعلتْ هي وآخرون غُيَّب معهم فعلًا – فعلتم كذا وصنعتم كذا "[٢] أما دور السياق اللغوي –وإن كان من نافلة القول لأنه لا يعد هدفًا للدراسة – فإنه يتمثل في أن المخاطب قد تحدد وتَعرَّف بالنداء في الآية السابقة .

ويرى أهل التحقيق – كما يقول الفخر الرازى (ت ٦٠٤هـ) – أن الخطاب في قوله تعالى : ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء ﴾[النساء:٣] لا يتناول العبيد لأن الخطاب إنما يتناول إنسانًا متى طابت له امرأة قدر على نكاحها والعبد ليس كذلك بل نكاحه بإذن مولاه واحتج الشافعيّ لذلك بالدليل النصيّ المقاليّ العائد إلى الخطاب ؛ فقد قال

---

١ – ينظر : النص والخطاب والإجراء : ٣٣٢ .

٢ – الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت٣١٠) : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٦ / ٣٥٠ ، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، د/ عبد السند حسن يمامة ، هَجَر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

تعالى بعد هذه الآية : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[النساء:٣] وهذا لا يكون إلا للأحرار ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[النساء:٤] والعبد لا يأكل ما طابت عنه نفس امرأته من المهر بل يكون لسيده[١].

ورآه آخرون للجميع ولذا وجب التكرير وإن كان ما أُطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة ولو أفردت لم يكن له معنى "[٢] .

والضمير في (أموالكم) من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾[النساء:٢] خطاب للأولياء والأوصياء ، وكذا واو الجماعة في صور الخطاب المتعددة في الآية الكريمة من أفعال الأمر نحو : ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾[النساء:٢] والمضارع المسبوق بالنهي نحو ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾[النساء:٢] فـ " الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنُهوا عن ذلك "[٣] وإضافة الأموال إلى ضمير المخاطبين وتخصيص الأعلى بالنهي وهو ما يُفهم من قوله تعالى (إلى أموالكم) – وإن كان طريق البلاغة النهي عن الأدنى تنبيهًا على

---

١ – الرازي (الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلّامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري) ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ١٨٠/٩ ، دار الفكر ، د. ت .

٢ – ينظر : الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر : ٤٦٧هـ – ٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٢١٧/٤ ، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه خليل مأمون ، دار المعرفة الجامعية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٣٠هت – ٢٠٠٩م.

٣ – الجامع لأحكام القرآن : م٣ / ج٥ : ١٤ ، وينظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٣٥١/٦ .

الأعلى– لأن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل فخُصِّص بالنهي تشنيعًا على مَن يقع فيه[١] .

ويفسِّر سياق الحال توجيه ضمير الخطاب في كلمة (أموالكم) من قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾[النساء:٥] إلى الأولياء وأضاف الأموال إليهم وهي أموال اليتامى لأنها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم[٢] ، كما قال تعالى : ﴿ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾[النساء:٢٥] وكذا : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾[النساء:٢٩] ؛ فالإضافة هنا من حيث ملكوا التصرف فيه لا أنهم ملكوه وإنما حسنت الإضافة إجراءً للوحدة بالنوع مجرى الوحدة بالشخص ، فالمال شيء ينتفع به نوع الإنسان فلأجل هذه الوحدة النوعية حسنت إضافة أموال السفهاء إلى أوليائهم أو أنه على السعة لأن الأموال في أيديهم كما يقال : بُسْر النخلة وماء البئر[٣] ويتضح دور المقام عند الطبري (ت ٣١٠هـ) عندما نراه يقول : " وأَوْلى الأقوال بتأويل ذلك" وقد رأى أن " أموالكم " تشمل أموال المنهيّين وأموال السفهاء وأن العرب لا تمتنع أن تخاطب قومًا خطابًا فيَخرُج الكلامُ بعضُه خبرٌ عنهم وبعضه عن غَيَب فيقال : أكلتم يا فلان أموالكم بالباطل بمعنى إنك وأصحابك وقومك أكلتم أموالكم كما أن السفهاء بذلك دخل ذكرُهم في ذكر المخاطبين بقوله (التي جعل الله لكم)[٤] ، فانطلاقهم من

---

١ – محيي الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١/٦١٠ ، دار ابن كثير – بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

٢ – ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٤ / ٢١٩ .

٣ – ينظر : النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ، ت ٣٣٨هـ) ، إعراب القرآن : ١٧٢ ، اعتنى به الشيخ خالد العلي ، دار المعرفة الجامعية – لبنان – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م ، وينظر : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ٩ / ١٩١ .

٤ – ينظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) : ٦ / ٣٩٦ – ٣٩٧ .

مخزونهم اللغوي المختزَن في أذهانهم جزء راسخ من عالمهم المعرفيّ وقيل المراد أموال المخاطبين حقيقة فالضمير لهم والمراد بالسفهاء النساء والصبيان[١] .

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) كما استدل على أن الضمير للأولياء بالدليل المقاميّ على ما تقدم استدل كذلك بالدليل المقاليّ الراجع إلى الخطاب وهو قوله تعالى : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾[النساء:٥] .

وكذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[النساء:٢٩] فـ" الضمير المرفوع بـ (تأكلوا) والضمير المضاف إليه أموال راجعان إلى (الذين آمنوا) فظاهر أن المرء لا ينُهى عن أكل مال نفسه ولا يسمى انتفاعه بماله أكلًا فالمعنى : لا يأكل بعضهم مال بعض "[٢] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾[النساء:٢٩] لا يراد منه خصوص النهي عن قتل المرء نفسه بل " نهي عن أن يقتل الرجل غيره فالضميران فيه على التوزيع إذ قد عُلِم أن أحدًا لا يقتل نفسه فيُنهى عن ذلك، وقَتْلُ الرجلِ نفسَه داخل في النهي"[٣] .

وبقرينة سياق الحال وكذا العالم المعرفي للمخاطبين يُحيل الخطاب بواو الجماعة المسند إليه الفعل الأمر في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾[النساء:٨] إلى مخاطَب بعينه لكلِّ أمرٍ؛ فهما وليّان : أحدما يرث والآخر لا يرث والذي يرث هو الذي أُمِر أن يرزقهم ، والذي لا يرث هو الذي أُمِر أن يقول لهم قولًا معروفًا ، وقال آخرون : إن كان الورثة كبارًا تولَّوا عند

---

١ – ينظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) : مج ٣ / ج٥ : ٣٠ .
٢ – ابن عاشور (محمد الطاهر) ، التحرير والتنوير : ٢٣/٥ ، الدار التونسية ، ١٩٨٤م .
٣ – السابق : ٢٥/٥ .

القسمة إعطاء المذكورين ذلك؛ فالخطاب لهم وإن كانوا صغارًا تولّى إعطاءَ ذلك منهم وليُّ مالِهم والخطاب له[١] .

وإذا كان الخطاب بشأن النساء فإن سياق الحال يقتضي أن يكون المخاطَب الأزواج خاصة ، بقرينة المعاشرة والهجر في المضاجع والاستبدال وغيرها من الأحكام المنوط بها الأزواج في نحو قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾[النساء:٢٠] وقوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾[النساء:٣٤] فإذا كان الخطاب بشأنهن في أحكام أُخَر تعددت مرجعية ضمير المخاطب حسب المقام أيضا – على ما يأتي –

٢ – المقام التفسيريّ وخصوصية الخطاب القرآنيّ :

يعد القرآن الكريم مصدر التشريع الأول وغالبًا ما تُساق الأحكام والإلزام بها في صورة الخطاب بمختلف صوره وضمائره ، فالضمير " you " – كما يقول دي بوجراند Robert de Beaugrand – " يُستعمل بصورة عامة فاعلًا للأعمال التي تعد نموذجية بقطع النظر عمّن يقوم بها ... والمُعلِنون مغرمون بالإيحاء بالمخاطَبة الشخصية بواسطة استعمال you ولو كانوا يتحدثون إلى مجموعة مجهولة الهوية "[٢] وللمقام التفسيري حينئذٍ دوره في توجيه مرجعية التأشير الشخصي إذ يوضح لنا أن ضمائر المخاطبين في قوله تعالى : ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ﴾[النساء:١٥] لعامة المؤمنين ولا تخص الأزواج كما يقد يُفهم من قوله تعالى (نسائكم) إذ المراد " وهن محصنات ذوات أزواج أو غير ذوات أزواج وأربعة منكم

---

١ – ينظر : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) : ٦ / ٤٣٣ ، ٤٤٤ .

٢ – النص والخطاب والإجراء : ٣٣٥ .

يعني من المسلمين "[1] كذا فإن المقام التفسيري يخص المؤمنين بالخطاب في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾[النساء:٤٣] " فخُصّوا بهذا الخطاب إذ كان الكفار لا يفعلونها صحاة ولا سكارى "[2] وزِيد تخصيصًا عند بعضهم حين جعل " الخطاب لجماعة الصّاحِين وأما السكران إذا عدِم المَيْز لسُكره فليس بمخاطَب في ذلك الوقت لذهاب عقله وإنما هو مخاطَب بامتثال ما يجب عليه وبتكفير ما ضيّع في وقت سكره"[3]

وكذا تخصيص الخطاب في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا ﴾[النساء:٧١] بأنه " خطاب للمخلصين من أمة محمد عليه السلام وأمر لهم بجهاد الكفار"[4] .

وعندما يُوجَّه الخطاب لجماعة المؤمنين وإنما الفعل للمنافقين فإن المقام يقتضي استعمال حرف الجر (مِن) في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾[النساء:٧٢] فـ " المراد بـ (مِن) المنافقون وعبّر عنهم بـ " منكم " إذ هم في عِداد المؤمنين ومنتحلون دعوتهم "(٥) .

---

١ – تفسير الطبري : ٦ / ٤٩٣ .

٢ – تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ١٧٩ .

٣ – السابق : مج٣ / ج٥ : ١٨١ .

٤ – ابن عطية الأندلسي (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب المتوفى سنة ٥٤٦هـ) ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٢/ ٧٧ ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، طبعة محققة عن نسخة آيا صوفيا – استانبول رقم (١١٩) المحفوظة صورتها في مكتبة مرعَشى نجفي– قمّ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ .

٥ – السابق : نفسه .

ويختص الخطاب القرآني بوصفه مصدر التشريع الأول بخصوص السبب وعموم الحكم مما يقتضيه المقام التفسيري وينسحب ذلك بدوره على فئة المخاطبين فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[النساء:٢٢] فقد " نزلت في قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم فجاء الإسلام وهم على ذلك فحرّم الله تبارك وتعالى عليهم المقام عليهن "[١] فالخطاب لهم ويعم المؤمنين ، والخطاب المستفاد من تاء المضارعة والمصحوب بالنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[النساء:٣٢] لعامة الناس أو لأولياء اليتامى والنساء خاصة بقرينة المراد من ذكر الرجال والنساء فإن أُريد بذكرهم قَصْد تعميم الناس مثل ما يُذكر البرّ والبحر والمشرق والمغرب والنجد والغور فالنهي المتقدم على عمومه وإن أُريد بذكر الرجال والنساء كلٌّ من النوعين بخصوصه فالنهي متعلق بالتمني الذي يُفضى إلى أكْل أموال النساء واليتامى أي ليس لأوليائهم أكْلُ أموالهم إذ لكلٍّ منهم ما اكتسب [٢] .

ومن تعميم الخطاب وإن كان ظاهره اختصاصه بالنبيّ – صلى الله عليه وسلم– قوله تعالى : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾[النساء:١٠٢] فالظاهر أن الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولا حجة فيه لمن ذهب إلى أنه لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل الخطاب شامل متناول لكلِّ إمام[٣] ومثله قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[التوبة:١٠٣] فالخطاب يعم أهل الأمر

---

١ – تفسير الطبري : ٥٤٩/٦ .

٢ – ينظر : التحرير والنوير : ٥ /٣١ .

٣ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢ / ٩٨ .

من بعده لذا وُصِف كلام من قصر الخطاب على النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك بالشذوذ[١]

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾[النساء:١١٣] فالظاهر أن الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم إتمامًا لقصة بني ظُفر الذين حاولوا إضلاله ، " والواقع أن الخطاب عام يتناول الناس جميعًا في مختلف ظروف الزمان والمكان"[٢] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[النساء:٥٨] نزل في عثمان بن عبد الدار وإن كان الخطاب عامًا لكلِّ أحد في كل أمانة [٣].

وقد يكون المقام التخاطبي أو سياق الحال هو المفسِّر الأوحد لضمير الخطاب المتصل عند مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهو عليه السلام المنوط بهبوط الوحي والأخذ عنه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[النساء:١٦٢] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾[النساء:١٦٣] وقوله تعالى : ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٤] وقوله تعالى : ﴿لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٦]

---

١ – ينظر : الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ) ، فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير : ٥٩٩/١ ، تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

٢ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٠٥/٢ .

٣ – ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل : ٢٤٢/٤ .

ويوافق ذلك ما يُفترض سلفًا في الخطاب القرآني عامة من أن المتكلم هو الله جلَّ ثناؤه والمخاطب أو المتلقي هو النبيّ عليه السلام .

٣ – تعدد المرجعيّة ودور المقام التفسيريّ في توجيهها :

لعله من خصوصية النص القرآني الكريم " أن الضمير فيه يتميز بصلاحية مرجعيته لأكثر من عنصر داخله أو خارجه وتخضع هذه الصلاحية لتأويلات المفسرين واجتهاداتهم وفق قرائن سياقية نصية أو مقامية "[١] فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[النساء:٤] فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون : هنيئًا لك النافجة لِمَن تُولد له بنت "[٢] ويقصره الفرّاء (ت ٢٠٧هـ) على الأولياء مستندًا إلى الدليل المقامي المذكور[٣] ، ويرجح الفخر الرازي أنه للأزواج مستندًا إلى الدليل المقالي لأنه "لا ذِكْر للأولياء ههنا وما قبل هذا خطاب للناكحين وهم الأزواج "[٤] ، وهو ما ذهب إليه الطبري مستندًا كذلك إلى الدليل المقالي " لأنه قال في أول الآية (فانكحوا) ما طاب لكم من النساء ولم يقل (فأنكحوا) "[٥] وكذا القرطبي مضيفًا مخاطَبًا ثالثًا يحتمله سياق الحال حينئذٍ هو " المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون امرأة بأخرى فأُمروا أن يضربوا المهور والأول – أي الأزواج – أظهر فإن

---

١ – محمد ماهر عبد الرحمن (دكتور) ، مرجعيّة الضمير في سورة الجن ، دراسة لغوية : ٤٦٩ ، مجلة كلية الآداب – جامعة بور سعيد ، العدد الثامن ، يوليو ٢٠١٦ .

٢ – الكشاف عن حقائق التنزيل : ٢١٨/٤ .

٣ – ينظر : الفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله ت ٢٠٧هـ) ، معاني القرآن : ٢٥٦/١ ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار السرور ، د.ت .

٤ – ينظر : التفسير الكبير : ١٨٦/٩ .

٥ – تفسير الطبري : ٣٨٢/٦ .

الضمائر واحدة وهي بجملتها للأزواج فهم المراد لأنه قال (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) إلى قوله (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) وذلك يوجب تناسق الضمائر وأن يكون الأول فيها هو الآخر "[١] .

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾[النساء:٥] قيل للأولياء وقيل للآباء والمقام عند المفسرين يرجّح أنه للأولياء حيث قال عزّ وجلّ في آخر الآية : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾[النساء:٥] فالوصية أشبه بالأيتام لأن المرء مشفق بالطبع على ولده كما أنه يحسن تعلُّق الآية بما قبلها على هذا القول فللمقام مقتضياته [٢].

ومع كَوْن الفاعل غائبًا عند النحاة فإن الأمر المستفاد من لام الأمر في قوله تعالى : ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[النساء:٦] يصبغ المقام بمعنى الخطاب وتلك هي اللغة في الاستعمال حيث يُراعى المراد ومقصود المتكلم والمقام يقتضي فرض أحكام تُوجَّه إلى مخاطب بعينه ، يقول القرطبي : " واختلف العلماء مَن المخاطب والمراد بهذه الآية ؟ " فرآه بعضهم وليّ اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه ، إذا كان محتاجا جاز أن يأكل منه ورآه آخرون اليتيم ، وسياق الحال هنا يرجح عندهم الأول لأن اليتيم لا يُخاطب بالتصرف في ماله لصغره ولسفهه[٣] .

---

١ – تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢٦ .

٢ – ينظر : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ٩ / ١٩٠ – ١٩١ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٣٣ / ٣٤

٣ – ينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٤١ .

ومثل ذلك الخطاب المستفاد من لام الأمر وإن كان الفاعل " الذين " في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[النساء:٩] وكذا " فليتقوا " و " وليقولوا " وإن كان حرف المضارعة الياء ، فالمقام الذي يراه المفسرون خطابًا يحتمل عندهم ستة مخاطبين [١]:

الأول : الحاضرون الذين يجلسون عند المريض فيأمرونه بتفريق ماله وصيةً به فيمن لا يرثه ، فالنهي عن الترغيب في الوصية ، والثاني : الحاضرون عند الموصِي كذلك إلا أن هؤلاء ينهونه عن الوصية لأقربائه ويأمرونه بإمساك ماله والتحفُّظ به لولده فنهاهم الله عزّ وجلّ عن النهي عن الوصية ، والثالث : أن يكون خطابًا للمُحتضِر أو لمن قرب أجله فالنهي له عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته ضائعين بعده ، وقد رآه الطبري أَوْلى التأويلات بالآية ، والرابع : أنه أمر لأولياء اليتيم ويرجِّح المقام ذلك عند بعضهم إذ يرونه أليق بما تقدم وتأخّرَ من الآيات الواردة في باب الأيتام ، والخامس : يفترضه كذلك المقام حيث يرى الزمخشري أنه يجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمرًا للورثة بالشفقة على الذين يحضرون القسمة من اليتامى والمساكين والسادس : أنه لجميع الناس ، أمرهم باتّقاء الله في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم .

والمخاطب المتمثل في واو الجماعة المسند إليها الفعل الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾[النساء:٨] الورثة إن كانوا كبارًا تولَّوا عند القسمة إعطاءَ ذلك للمذكورين وإن كانوا صغارًا تولّى إعطاءَ ذلك ولاتُهم والخطاب لهم وهذا ما يقتضيه سياق الحال، وقيل المخاطب

---

١ – ينظر في ذلك : تفسير الطبري : ٦/٤٥٠ – ٤٥٢ ، الكشاف : ٤ / ٢٢٢ ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ٩ / ٢٠٥ – ٢٠٦ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٥٠ .

المحتضِرون، فإذا أراد المريض أن يفرّق ماله بالوصايا وحضره مَن لا يرث ينبغي ألّا يحرمه[1].

والخطاب في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٣٥] قيل المراد الحُكّام والأمراء وقيل المراد الزوجان وقيل الخطاب للأولياء[2] ، والخطاب في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[النساء:١٩] لورثة مَن مات من الرجال أي لا تحبسوا أزواجهم عن نكاح من أردْنَ ، وقيل للأزواج أي لا تحبسوا نساءكم ضرارًا ولا حاجة بكم إليهن وقيل المنهي عن عضل النساء هنا أولياؤهن ، وقيل : الزوج بعد فراقه إياها ، وكان ذلك من فعل أهل الجاهلية فنُهوا عنه في الإسلام[3] وكلها مرجعيات محتمَلة يقبلها سياق حال المخاطبين .

والخطاب في قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] للنبيّ – ﷺ – والمراد أمته وهو ما يقتضيه المقام التفسيري ويفرضه مصدر التشريع الأول، وقيل الخطاب للإنسان والمراد الجنس [4].

وعلى حين تتعدد مرجعية ضمير الخطاب في قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [النساء:١٢٣] لتشمل أهل الإسلام عند بعضهم إذ يقول كلٌّ منهما – أهل الإسلام وأهل الكتاب – للآخر : نحن أهدى منكم ، وأهل الشرك عند آخرين ، ويرجح

---

١ – ينظر : تفسير الطبري : ٦ / ٤٤٥ – ٤٤٦ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٤٨ .

٢ – ينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ١٥٨ .

٣ – ينظر : تفسير الطبري : ٦ / ٥٢٧ – ٥٣٠ ، العكبري ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٥٦/١ ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

٤ – ينظر : المحرر الوجيز ، ٨٢/٢ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٢ : ٢٥٠ .

المقام عند الطبري أنهم مشركو قريش " لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكرٌ فيما مضى من الآي قبل قوله (ليس بأمانيّكم) وإنما جرى ذكر أمانيّ نصيب الشيطان المفروض"[١].

والخطاب في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [النساء:١٣٦] للمؤمنين وقيل للمنافقين والمعنى يأيها الذين آمنوا في الظاهر أخلِصوا لله ، وقيل للمشركين والمعنى: يأيها الذين آمنوا باللات والعُزّى آمنوا بالله[٢] وقيل نزلت في أهل الكتاب ، فإن سُئل عن وجه دعائهم إلى الإيمان وقد نُودوا به قيل " إنه جلّ ثناؤه لم يسمهم مؤمنين وإنما وصفهم بأنهم آمنوا وذلك وصف لهم بخصوص من التصديق "[٣] والخطاب في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ }[النساء:١٤٠] لكلّ من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزله الله "[٤] وذلك هو المقام التفسيري وسياق الحال المراد ، وقصره بعضهم على المنافقين[٥] ويدعمه لدى هؤلاء قوله تعالى بعد ذلك﴿ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٤٠].

٤ – الالتفات من الخطاب إلى الغيبة والعكس :

الخطاب من حيث التوجيه والمخاطبة نوعان : المباشر من المتكلم إلى المتلقي (أنا ←أنت) وغير المباشر : الكنائيّ الذي ورّى فيه المتكلم عن نفسه أو التفت

---

١ – تفسير الطبري : ٥١٤/٧ ، وينظر : تفسير القرطبى : مج٣ / ج٥ : ٣٤٥ .

٢ – ينظر : فتح القدير : ١/ ٦١٧ .

٣ – تفسير الطبري : ٧ / ٥٩٤ – ٥٩٥ .

٤ – فتح القدير : ٦١٨/١ .

٥ – ينظر : تفسير الطبري : ٦٠٢/١ ، فتح القدير : ١/ ٦١٩ .

عنها بضمير غيره أو خاطب فيه المتلقي بغير خطابه الصريح ، وتتعدد أساليب العدول عن الخطاب المباشر لتقع في الضمير والنوع والعدد والتحوّل في الزمن ... الخ ، كما تتعدد باعتبار الضمير لتشمل التحوّل من المتكلم (أنا) إلى خطاب الغائب (هو) ومن الغائب إلى المتكلم والتحوّل من المخاطَب إلى الغائب ومن الغائب إلى المخاطب [١].

فعلى حين يستأثر المقام بتفسير ضمير الخطاب فيما سبق قد تعاونه قرائن أخرى في مواضع أُخَر إذ ينتقل الضمير من الخطاب إلى الغيبة فيما يُعرف لدى البلاغيين بالالتفات الذي يعده ابن المعتز (ت ٣٩٩هـ) أول محاسن الكلام ويعرّفه بأنه انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ومنه – وهو المراد هنا – الانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من غائب إلى حاضر وسر بلاغته عند الزمخشري أنه تفنُّن في الكلام وأن الانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظ للإصغاء إليه[٢] ويصبح ضمير الغائب أو الاسم الظاهر حينئذٍ أحد المفسِّرات التي يرجع إليها ضمير الخطاب ، ففي قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾[النساء:٦٤] نجد أن المقام هو

---

١ – ينظر : محمود عكاشة (الدكتور) ، تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم : ١٨ – ١٩ ، دار النشر للجامعات – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م .

٢ – ابن المعتز :(أبو العباس عبد الله بن المعتز) ، البديع : ٧٣ ، شرحه وحققه عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م ، وينظر : أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر : ٣٩٣ – ٣٩٤ ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م .

المفسر الأول لضمير النصب في (جاءوك) وأن قوله تعالى : (واستغفر لهم الرسول) يؤكد ذلك فـ " سياق الكلام يقتضي أن يقول : " واستغفرتَ لهم ولكنه عدل عن ذلك للتنويه بالرسول وليدل عليه دلالة مؤثرة في قلوبهم ولاشتماله على ذكر صفة مناسبة وهي الاستغفار لمَن تعاظمت ذنوبهم وتعددت آثامهم "[١] فهناك دواع أخرى للالتفات منها " تعظيم شأن المخاطب بالتوجّه إليه أو الانصراف عنه أو تكذيب القول بعد روايته وتنبيه السامع إلى ما فيه من الخطأ"[٢] .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾[النساء:٤٧] ولم يقل " وجوهكم " بعد مخاطبتهم بالنداء " تلطُّفًا بالمخاطبين وتهويلًا للأمر العظيم "[٣] وكذا في قوله تعالى بعد ذلك " أو نلعنهم " بضمير الغائب أي أصحاب الوجوه.

وقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ ﴾[النساء:١٠٢] فضمير الغيبة في "سجدوا" يراد به القائمون في الصلاة ، وكذا ضمير المخاطب في "ورائكم" أي من وراء المصلين [٤] ، ومثله الالتفات في قوله تعالى: ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[النساء:١٠٩] حيث انتقل من الغيبة في قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ ﴾[النساء:١٠٨]

---

١ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢/٥٠-٥١ .

٢ – بدوي طبانة (الدكتور) : معجم البلاغة العربية : ٦١٨ (باب اللام) ، دار المنارة – جدة ، دار الرفاعي – الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٣ – إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٢/٣٦ ، وينظر: تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢١٧ .

٤ – ينظر: فتح القدير : ١/٦٠٠ .

إلى الخطاب لمشافهتهم بالتوبيخ والإنكار وهم قوم طعمة بن أُبَيْرِق الذين حاولوا ستر جنايته وسرقته[1].

ب – الضمير المنفصل :

ضمير الخطاب المنفصل نوعان : للرفع نحو : أنتَ ، وأنتِ ، وأنتم ، وللنصب وهو " إيّا " يليه ما يراد به إفرادًا وتثنية وجمعًا تذكيرًا وتأنيثًا فيقال : إيّاك ، إيّاكِ ، إيّاكما ... الخ [2].

وورود ضمير الخطاب المنفصل في السورة الكريمة قليل ، فلم يرد إلا في ثلاثة مواضع :

أحدها : "أنتم" المسند إليه في الجملة الحالية من قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ﴾[النساء:٤٣] وعلى الرغم من أن المقام يفسره بوصفه ضمير حضور فإن المقام المقالي يسهم كذلك في توجيه مرجعيته إذ سُبق بنداء الذين آمنوا وكذا الضمير العائد إليهم في (لا تقربوا) فالمرجعية متصلة .

والثانى في قوله تعالى : ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[النساء:١٠٩] وقد تعاون أيضا كلٌّ من السياق المقامي والمقالي في توجيه مرجعيته فالمقامي لأنه ضمير حضور يناط المقام بتفسيره والمقالي يتمثل في الالتفات من الغيبة في قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ ﴾[النساء:١٠٨] – والحديث عن بني ظفر

---

١ – ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢/١٠٣-١٠٤ .

٢ – ينظر : همع الهوامع : ١/٢٤٣ .

من الأنصار وهم قوم طعمة بن أبيرق – إلى الخطاب المسوق هنا لتبكيتهم إذ حاولوا ستر جنايته وسرقته [١].

والثالث : يتمثل في ضمير النصب المنفصل " إياكم " من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾[النساء:١٣١] وهو معطوف على " الذين " وحكم الضمير المعطوف أن يكون منفصلًا والمخاطَب به العباد أجمعون ولا مرجع له يعود إليه ولا يفسره إلا السياق [٢].

وجدير بالذكر أن ندرة الضمير المنفصل هنا قياسًا بالمتصل لا يخص سورة النساء وحدها بل إنه نظام العربية ، ففي حال الاختيار لا يجيء المنفصل إذا تأتّى أن يجيء المتصل لأن المتصل أخصر وأبين في المعنى فقولك : ضربتك أبين من قولك : ضربت إياك لأنه أخص والأخص أدل على المقصود من الأعم [٣].

ج – الضمير المستتر :

الضمير المستتر ضمير استُغني بمعناه عن لفظه[٤] ويعد في قوة الملفوظ به وإن لم يظهر في التركيب ، ويستتر الضمير جوازًا ووجوبًا ؛ فإن دلّ على حضور كان استتاره واجبًا وذلك بأن يكون ضمير تكلُّم أو خطاب كالمرفوع بالفعل الأمر نحو " اضرب " والمضارع للمتكلم كـ " أضربُ " أو المخاطب كـ " تضربُ " واسم الفعل الأمر كـ

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٦٠٣/١ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٠٣/٢ .

٢ – ينظر : تفسير الطبري : ٥٧٨/٧ – ٥٧٩ ، الكشاف : ٢٦٤/٥ ، التبيان في إعراب القرآن : ٣٠١/١ .

٣ – ينظر : شرح ألفية ابن مالك للعثيمين : ٢٢٥/١ ، المرتجل : ٢٨١ .

٤ – ينظر : شرح التسهيل : ١٢٠/١ .

" صه " ونزالِ واسم الفعل المضارع كـ " أوّه " و" أفّ "[١] ومفسِّره حينئذٍ حضوره أي السياق الذي يرد فيه لذا يعد من الإشاريات في الدرس الحديث .

وعلى الرغم من تقسيم القدماء للضمير المستتر بمراعاة جواز الاستتار ووجوبه فقسمه عبد القاهر الجرجاني إلى لازم وغير لازم[٢] وهو ما عبّر عنه ابن مالك بجائز الخفاء وواجب الخفاء[٣] فإنه لا يبرز في الاستعمال العربي أبدًا و" لو قلت فعلَ هو لم يجز إلا أن يكون صفة"[٤].

والتزام اللسان العربي إخفاءه في مواطن محددة معلومة يُبرز ثقتهم في السياق وفهمهم عنه فالضمير المستتر لا يكون إلا ضمير رفع لأنه ضمير الفاعل والفاعل لازم للفعل وشبهه أما المفعول فغير لازم لذا يعدونه فضلة فلم يكن المستتر ضمير نصب ، كذا لا يكون ضمير جر لأنه فضلة ولا يتصل أبدًا بالفعل ، فاستدعاء الفعل للضمير المستتر وشدة لصوقه به حتى عدوه ضميرًا متصلًا زاد ثقتهم بكنهه وعلمهم بمكانه ومحله الذي لا يعدو الأفعال وشبهها فالتزموا إخفاءه.

وقد عبّر عن اتصاله كثير من النحويين يقول سيبويه : " المضمر في النية مرفوع فهو يجري مجرى المضمر الذي يُبَيَّن علامتُه في الفعل "[٥] ويرى أن الإضمار في (فعلَتْ) " بمنزلة الإضمار الذي له علامة "[٦] ، ويقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ) "

---

١ – ينظر : همع الهوامع : ٢٤٤/١ – ٢٤٥ .

٢ – ينظر : القاسم بن حسين الخورازمي (ت ٦١٧هـ) ، ترشيح العلل في شرح الجمل : ٣٤٢ ، تحقيق عادل العميري ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ .

٣ – ينظر : شرح التسهيل : ١٢٠/١ – ١٢١ .

٤ – الكتاب : ٣٥١/٢ ، والمراد بقوله صفة هنا التوكيد .

٥ – السابق : ٢٤٦/١ .

٦ – السابق : ٣٥١/٢ .

من ذلك جمعهم في الاستقباح بين العطف على الضمير المرفوع المتصل الذي لا لفظ له وبينه إذا كان له لفظ "[١] ويعددون في أثناء ذلك أوجه الشبه بينه وبين المتصل البارز بما لا يتسع المقام لتناوله ، وقد تمثّلت سورةُ النساء صيغتي استتار ضمير الخطاب الآتيتين :

أولا : المرفوع بالفعل الأمر:

وجدير بالذكر هنا أن المخاطب بذلك الضمير في السورة الكريمة كلها هو النبيّ صلى الله عليه وسلم فسياق الحال يفرض أن يكون طرفا الخطاب – في الغالب – الله سبحانه وتعالى (المتكلم) والنبيّ عليه السلام (المخاطَب) فهو عليه السلام المنوط بالتلقي والتبليغ لذا يتكرر الفعل الأمر " قل " وفاعله المستتر العائد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾[النساء:٧٧] و﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ ﴾[النساء:٧٨] و﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء:١٢٧] لذا يسميه بعض المحدثين فعل التبليغ الإلهي ، ويصفه بأنه "خطاب بناء الشخصية النبوية وتحديد آلياتها ووظائفها فقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم مهام بناء الأمة منطلقا من (قل) ... إذ في (قل) تصاغ قواعد المنهج النبويّ وسننه في بناء الإنسان والعالم "[٢].

ويأتي الضمير المرفوع بالفعل الأمر مستترًا مع أفعال أخرى عائدًا إلى النبيّ عليه السلام وكلها تؤدي إلى إنجاز المطلب الإلهى ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ

---

١ – ابن جني : الخصائص : ٢٠/٣ ، تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، د. ت .

٢ – جاسم الفارسي (الدكتور) : آيات (قل) في القرآن الكريم : المعنى والدلالة (دراسة تداولية) : ٩ ، دار ناشري للنشر الإلكترونى WWW.Nashiri.net ، شوال ١٤٤٢هـ / يونيو ٢٠٢١ .

الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾[النساء:٦٣] وقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[النساء:٨٤] ، " قال الزجاج : أمر الله رسوله بالجهاد وإن قاتل وحده لأنه ضمن له النصر . قال ابن عطية : هذا ظاهر اللفظ لأنه لم يجئ في خبر قط أن القتال فُرِض عليه دون الأمة فالمعنى والله أعلم أنه خطاب له في اللفظ وفي المعنى له ولأمته "[١] ، إن عالم المخاطبين قد فرض عود الضمير عند ابن عطية على النبيّ والأمة كليهما إذ " لم يجئ في خبر قط " تكليفه بالجهاد وحده .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[النساء:١٠٦] فالخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد بنو أبيرق[٢] كقوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾[الأحزاب:١] ، وهو من مقتضيات المقام أو عالم المخاطبين فهناك اتفاق على أن الأنبياء " معصومون من الكبائر ومن كلّ رذيلة فيها شَيْن ونقص "[٣] وإن كان ذلك لا يمنع أنهم أكثر الناس استغفارًا .

وتُلمس العلاقة الوطيدة بين طرفي الخطاب في قوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء:١٣٨] أي أخبرهم فالتهكُّم بهم واضح إذ أطلق البشارة على ما هو

---

١ – فتح القدير : ٥٨٣/١ ، وينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢٥٧ .

٢ – ينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٣٢٩ ، فتح القدير : ٦٠٣/١ .

٣ – البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ) ، تفسير البغوي ، معالم التنزيل : ٢٩٧/٧ ، حققه وخرّج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة – الرياض ، ١٤١٢هـ .

شر خالص لهم[١] وكذا قوله تعالى : ﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ ﴾[النساء:٥٠] مما يوضح ذلك القرب وأن المخاطب ذو علاقة خاصة بالمتكلم .

والضمير المرفوع بالفعل الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾[النساء:٤٦] للنبيّ عليه السلام أيضًا إلا أن المتكلم اليهود .

وقد جاء ذلك الضمير راجعًا إلى الله سبحانه وتعالى في قوله عزّ وجلّ : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء:٧٥] مفسَّرًا أولًا بالدليل المقالي (ربنا) ثم بالمقام فهو سبحانه ملجأ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

كما جاء الضمير المرفوع بالفعل الأمر راجعًا إلى سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً ﴾[النساء:١٥٣] .

ثانيا : المرفوع بالمضارع :

يستأثر خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك بالضمير المرفوع بالمضارع فعائديته المفسَّرة بمقام الحضور وسياق الحال تعود إليه ويتكرر التركيب " ألم تر " في تلك المخاطبة مع ما يحمل من أغراض دلالية وبلاغية توضح العلاقة بين الباثّ (المتكلم) والمتلقي إذ تُلمس فيه ملاطفته صلى الله عليه وسلم – في الخطاب وتقريبه إلى الله عز وجل وغيرها من المعاني السامية التي يحتملها الخطاب وينصرف إليها غرض الاستفهام ومن ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[النساء:٦٠] وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾[النساء:٤٤] ، وقوله

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٦١٨/١ .

تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾[النساء:٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[النساء:٧٧] فالخطاب هنا " مسوق لإثارة العجب في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال بعد إظهارهم الرغبة فيه ومباشرتهم فيه فعلًا "[١]

يقول الفرّاء " (ألم تر) في عامة القرآن (ألم تُخبر) وقد يكون في العربية : أما ترى أما تعلم"[٢] فلا شك أن الاستفهام هنا تمهيد لإطلاعه عليه السلام على أخبار الأمم السابقة وعلى الأحكام والتكاليف بوصفه المخاطب المنوط بذلك ، وفى إطار ذلك تتعدد الأفعال المضارعة المراد بها الخطاب مسبوقة تارة بالنفي وأخرى بالنهي وقد تسبق بأن المصدرية أو بلام التعليل أو بغير ذلك لتفيد المراد ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا ﴾[النساء:٨٨] ، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[النساء:١٠٥] وقوله: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾[النساء:١٠٧] وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾[النساء:١١٣] ، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء ﴾[النساء:١٥٣] ، وقيل إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥] لكلِّ مَن يصلح له أو للنبيّ ﷺ "[٣] .

---

١ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٣/٢ ، وينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢١٩ .

٢ – معاني القرآن : ٢٧٠/١ .

٣ – فتح القدير : ٦٢٢/١ .

ثالثا: ضمير الشخص الأول "المتكلم" ودور السياقَيْن العَقَديّ والتفسيريّ في تفسير عائديته:

يأتي ضمير المتكلم في العربية متصلًا ومنفصلًا ومستترًا ويأتي ضمير المتكلم المتصل للرفع وذلك تاء المتكلم في قرأتُ وضربتُ ونحوهما ، وللنصب والجر وذلك ياء المتكلم في نحو ضربني وكتابي ، وللرفع والنصب والجر وذلك " نا " الفاعلين في نحو ضربْنا وضربَنا وكتابنا .

واستقراء الضمائر في سورة النساء يوضح قلة ورود ضمائر المتكلم فيها وغلبة ضمير المخاطب والنداء ؛ لأن السورة الكريمة مقام تشريع وفرض أحكام مما يقتضي المخاطبة .

وقد وردت ضمائر المتكلم على صورتين : متصلة ومنفصلة وخلَتْ من ضمير المتكلم المنفصل وقد تعددت مرجعية ضمير المتكلم لتشمل الله سبحانه وتعالى – وهو الغالب – وأهل الكتاب، واليهود ، والمنافقين ، والشيطان .

أ – ضمير المتكلم المتصل :

يكثر ضمير المتكلم العائد إلى الله عزّ وجلّ وسياق الحال وكذا السياق العَقَدي كلاهما يؤيد تلك المرجعية ، فالقرآن الكريم كلام الله وهو سبحانه المتكلم الأول به هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه سبحانه المشرِّع والمحاسب عباده على أعمالهم لهذا جاءت الأفعال المسندة إلى ذلك الضمير معبِّرة بدلالاتها التفسيرية عن ذلك من نحو : " أوحينا " آية ١٦٣ ، " أنزلنا " آية ١٠٥، ١٧٤ ، " أرسلنا " آية ٦٤ ، " آتينا " آية ٥٤ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، " كتبنا " آية ٦٦ ، " وصينا " آية ١٣١ ، " قصَصْنا " آية ١٦٤ ، " أعتدنا " آية ٣٧ ، ١٦١ ، " عفَوْنا " آية ١٥٣، " رفعنا " آية ١٥٤ ، " هدينا " آية ٦٨ ... الخ ، وكذا نحويًّا إذ اقتصر الضمير – على ما نرى – على الرفع المعبِّر عن الفاعلية .

وقد تحدث سبحانه بالضمير " نا " لأنه عظيم في نفسه وعند عباده ولم نظفر مع استقصاء البحث بضمير يختص بالمتكلم المفرد من نحو تاء المتكلم أو يائه العائد إلى الله عزّ وجلّ على أنه يجدر بالذكر هنا أنه سبحانه تحدث عن نفسه في القرآن الكريم تارة بضمير الجمع وأخرى بضمير المتكلم الدال على المفرد ، والأسلوبان كلاهما مستعمل في لغة العرب والله سبحانه – فيما نرى – يخاطبهم بلسانهم على اختلاف في ذلك يبينه ابن تيمية (٧٢٨هـ) بقوله : " إن لفظ " إنّا " و " نحن " وغيرهما من صيغ الجمع يتكلم بها الواحد الذي له شركاء في الفعل ويتكلم بها الواحد العظيم الذي له صفات تقوم كلُّ صفة مقام واحد وله أعوان تابعون له لا شركاء له .. فكان ما ذكره من صيغ الجمع مبيِّنًا لما يستحقه من العظمة والأسماء والصفات وطاعة المخلوقات من الملائكة وغيرهم ، وأما حقيقة ما دلّ عليه ذلك من حقائق الأسماء والصفات وما له من الجنود الذين يستعملهم في أفعاله فلا يعلمه إلا هو ... بخلاف الملك من البشر إذا قال : قد أمرنا لك بعطاء فقد عُلِم أنه هو وأعوانه مثل كاتبه وحاجبه وخادمه ونحو ذلك أمروا به وقد يُعلم ما صدر عنه ذلك من اعتقاداته وإراداته ونحو ذلك " [١].

ويحتِّم السياقان العَقَدي والتفسيري رجوع الضمير هنا إلى الله عزّ وجلّ ولنأخذ – على سبيل المثال – الفعل " أوحينا " ؛ فالوحي في اصطلاح هؤلاء "إعلام من الله تعالى مَن يصطفيه مِن عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة "[٢] ، وكذا

---

١ – ابن تيمية ، التدمرية ، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدَر والشرع : ١٠٩ – ١١٠ ، وينظر : ص ٧٥ ، تحقيق محمد بن عودة السعودي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٢ – منّاع القطّان ، مباحث في علوم القرآن : ٢٧ – ٢٨ ، مكتبة وهبة – القاهرة ، الطبعة السابعة ، د.ت .

الفعل " وصينا " من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾[النساء:١٣١] "يعني إنها وصية قديمة مازال الله يوصي بها عباده لستم بها مخصوصين "[١] والفعل " آتينا " من قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾[النساء:١٥٣] أي " حجة بيّنة من المعجزات وهي الآيات التسع "[٢] ، والفعل " أعتدنا " من قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء:٣٧] ونحوه ، كلّ ذلك مما يختص به المتكلم " الله " فقد " فصل تعالى توعُّد المؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة والثانى عذابا مهينًا "[٣] ... الخ

وقد جاء الضمير " نا " العائد إلى الله تعالى في محل نصب في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[النساء:٦٦] كما جاء ضمير جر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [النساء:٥٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٦٧] ويفسره الحضور والمقام الخارجي تُعاونُهما في ذلك مصحوباته اللغوية .

ويُملي النظام اللغوي على جماعة المتكلمين من نحو اليهود والمنافقين و أهل الكتاب استعمال ضمير المتكلم المتصل " نا " الفاعلين من نحو الضمير العائد إلى اليهود في قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾[النساء:٤٦] فالسياق اللغوي المستفاد من بداية الآية " الذين هادوا "

---

١ – الكشاف : ٢٦٤/٥ .

٢ – تفسير البغوي : معالم التنزيل : ٣٠٦/٢ .

٣ – تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ١٧٤ .

وكذا المقام التفسيري يؤكدان مرجعية ضمير الحضور هنا إلى اليهود إذ يذكر علماء التفسير أنهم كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم – سمعنا قولك وعصينا أمرك[١] وعلى حين يقتضي المقام اللغوي بدءً من الآية (١٥٣) عَوْد الضمير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾[النساء:١٥٧] إلى المتكلم " أهل الكتاب " يخصّه المقام التفسيري باليهود ؛ فالعالَم المعرفي لهؤلاء يخبرنا أنهم " أجمعوا على قتله فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود "[٢] ، وكذا فإن " محل المؤاخذة عليهم منه – أي من قولهم هذا – هو أنهم قصدوا أن يعدوا هذا الإثم في مفاخر أسلافهم "[٣] كما يقضي المقام التفسيري بأن ضمير النصب المتصل في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾[النساء:١٥٣] يعود إلى اليهود تحديدا[٤] وكذلك ضمير الجر في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[النساء:١٥٥] وإن ذُكر أهل الكتاب في بداية الآيات على ما أشرنا بل يخبرنا العالم المعرفي للمتكلمين بأنهم اليهود في زمن سابق " وإنما أُسند السؤال إليهم وإن وُجد من آبائهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت"[٥].

إن ما تقدم يؤيد ما يذكره بعض المعاصرين من أن تحليل متقدمي المفسرين من المسلمين يثبت أنهم كانوا على وعي ببنية الخطاب : مقاصده والعناصر المشتركة فيه لأنهم احتكموا إلى الدليل اللغوي والشرعي والعلمي واعتمدوا على قرائن لفظية وعرفية

---

١ – ينظر : تفسير البغوي : ٢/٢٤٦ .

٢ – الكشاف : ٥/٢٧٠ .

٣ – ينظر : فتح القدير : ١/٦٢٥ .

٤ – السابق : نفسه .

٥ – الكشاف : ٥/٢٦٩ .

وعقلية وعوائدية – من العادة – وزمنية وبيئية ومعرفية في تعيين مقاصده[١] ونلمس أهمية تلك القرائن في تعيين مرجعية ضمير المتكلم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾[النساء:٧٧] ؛ فقد اختلفوا فيها بين اليهود والمنافقين وطائفة من الصحابة[٢] ويرجح المقام العقَدي والعالم المعرفي أن المتكلم المنافقون أو اليهود إذ لا يليق بالمؤمنين ذلك القول وقيل " قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفًا لا اعتقادًا ثم تابوا "[٣] .

والضمائر المتصلة في " ربنا – أخرجنا – لنا " من الآية ٧٥ تعود إلى " المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، كما يخبرنا السياق اللغوي للآيات أما عالم المتكلمين المعرفي فيزيد تلك المرجعية وضوحًا وتحديدًا إذ إنهم المستضعفون في مكة آنذاك[٤] .

وقد وردت ياء المتكلم في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾[النساء:٧٢] وقد نزلت في المنافقين[٥] فلا تخص متكلمًا بعينه بل تصلح لكل منافق يتكلم بذلك وكذلك في قوله تعالى : ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾[النساء:٧٣] .

---

١ – ينظر : تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة : ١٥ .

٢ – ينظر : تفسير البغوي : ٢/٢٥١ ، المحرر الوجيز : ٢ /٨٠ .

٣ – السابق : نفسه .

٤ – ينظر : السابق : ٢ / ٢٥٠ .

٥ – ينظر : تفسير الطبري : ٧ / ٢١٩ ، تفسير البغوي : ٢/٢٤٨ .

ب – ضمير المتكلم المستتر :

يتميز الفاعلان المستتران المتكلم والمخاطب بقرينة حالية قوية تفسرهما هي الحضور والمشاهدة فلا يحتاجان إلى مفسِّر ملفوظ ولذا يتفقان في كون أفعالهما لا ترفع اسمًا ظاهرًا بل مضمرًا مطابقًا بارزًا كان أو مستترًا ، لأن الظاهر بمثابة الغائب في أصل وضعه والمتكلم والمخاطب حاضران فتناقض مدلولهما فامتنع الجمع بينهما[١] .

وافتقار الفاعل المستتر المتكلم إلى القرينة الحالية وإلى السياق أشد وذلك أن فعل المتكلم المفرد يكون بلفظ واحد للمذكر والمؤنث " أقرأُ " وليس كذلك فعل الغائب ولا المخاطب ، كما يأتي فعل المتكلم بلفظ واحد للمثنى بنوعيه وللجمع بنوعيه " نقرأ " يقول ابن يعيش (ت ٦٤١هـ) "ولا يظهر فيه أي في "نفعل" علامة تثنية ولا جمع لامتناع حقيقة التثنية والجمع منه إذ المتكلم لا يشاركه متكلم آخر في خطاب واحد فيكون اللفظ لهما لكنه قد يتكلم عن نفسه وعن غيره فجُعل اللفظ الذي يتكلم به عنه وعن غيره مخالفًا للفظ الذي له وحده واستوى أن يكون غيره المضموم إليه واحدًا واثنين وجماعة "[٢] .

والمقام العَقَدي يقضي بأن الفاعل المستتر المتكلم – الضمير نحن – هو الله سبحانه وتعالى في الأفعال الآتية : ﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾[النساء:٥٦] ، ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ﴾[النساء: ٥٧ ، ١٢٢] ، ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلا ﴾[النساء:٥٧] ، ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:١٦٢] ، ﴿ وَ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٤] .

---

١ – ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل : ١٠٩/٣ ، المكتبة التوفيقية ، د.ت .

٢ – السابق : نفسه .

ويتعاون السياق اللغوي مع السياق العقدي عن طريق الالتفات من المتكلم إلى الغائب إذ يذكر اسم الجلالة لاحقًا الضمير المستتر فيؤكد ما يمليه السياق العقدي في نحو قوله تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء:٣٠] وكذا في الآية (٤٧) التي ترد فيها الأفعال : " نزلنا " ، " نطمس " ، " فنردها " ، " نلعنهم " ثم تختتم بقوله تعالى : " وكان أمر الله مفعولًا ".

وتتعدد قرائن السياق وتتعاون في صورة منهجية يختص بها الخطاب القرآني وتُلمس بوضوح عند علماء العربية المتقدمين فمن أشهر مذاهبهم " تفسير القرآن بالقرآن والحديث والأثر المروي عن الصحابة رضي الله عنهم وهو منهج أصيل أرساه النبي صلى الله عليه وسلم فقد أحال الصحابة رضي الله عنهم في تفسير بعض الخطاب القرآني إلى ما يُبيّنه في موضع مفصَّل منه وهو أكثر مذاهب التفسير دقة وقطعًا في الدلالة وقد طبقه شآبيب المفسرين فقد فسروا المجمل من القرآن بالمفصل في موضع آخر والمضمر بالظاهر والمحذوف بالمثبت والمبهم بالصريح الواضح ووضعوا قانون السياق بنوعيه اللغوي والمقامي الحالي "[١].

إن وضع ضمير الحاضر إزاء تلك المنهجية يؤتي ثمارًا أكثر من أن تحصى تتمثل في دلائل نقلية شتى من الكتاب والسُّنة تؤيد عائديته التي لا تتضح في موضعه إلا من خلال السياق المقامي فيما يمكن أن نطلق عليه "موضوع العائدية "[٢] وهو مما يسم الخطاب القرآني ويؤكد خصوصيته .

---

١ – تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة : ١٢ .

٢ – وضعنا هذا المصطلح قياسًا على مصطلح " موضوع الخطاب " الذي وضعه الدكتور محمد خطابي وعرّفه بأنه " بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد

←←←

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٧٤] يؤيد القرآن في موضع آخر عود الضمير في " نؤتيه " إلى المتكلم" الله "عزّ وجلّ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾[النساء:١٠٠] وكذا الحديث الشريف فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة"[١].

والضمير المستتر " نحن " الذي تدل عليه نون المضارعة في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤١] يعود إلى المنافقين كما يقضي بذلك المقام التفسيري[٢] وإلى اليهود في قوله تعالى:{ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾[النساء:١٥٠] ، فالعالم المعرفي لهؤلاء يُفيد بأنها" نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة وعُزير وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد والقرآن "[٣].

→→→

تطول وقد تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز وإطناب " لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب : ٨٠ ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ .

١ – ينظر : تفسير البغوي ٢٤٩/٢ ، والحديث أخرجه البخاري في الخمس باب قول النبيّ " أُحلت لي الغنائم": ٢٢٠/٢ ، وفي التوحيد ومسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله برقم (١٨٧٦): ١٤٩٦/٣.

٢ – ينظر : تفسير الطبري : ٦٠٦/٧ ، فتح القدير : ٦١٩/١ .

٣ – تفسير البغوي : ٣٠٥/٢ .

والضمير المستتر " أنا " الدال عليه همزة المضارعة في قوله تعالى : ﴿ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيمًا ﴾[النساء:٧٣] يصلح لكلّ منافق كما ذُكر في المبحث السابق .

وجدير بالذكر هنا أن تقدير النحاة للضمير المستتر بـ " أنا / نحن " لا يعني أنهم يعدونه منفصلًا ولا يناقض ما أثبتناه لديهم من أنهم يعدونه متصلًا ، فذلك التقدير لتيسير الدرس والتعلُّم.

المبحث الثاني

التأشير الزمانيّ "Temporal Deixis "في سورة النساء

أولا : الإشاريات الزمانية :

يقصد بها كلمات دالة على الزمان المحدد بالسياق قياسًا إلى زمان التكلُّم[١] مثل " الآن " للوقت الذي ينطق فيه المتكلم قوله و" آنذاك " للوقت الماضي بالنسبة لوقت المتكلم الحاضر نحو : ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ كنت في اسكتلندا آنذاك و" حينئذٍ " للمستقبل بالنسبة لوقت المتكلم الحاضر نحو : العشاء يوم السبت في الثامنة والنصف ؟ حسنًا سأراك حينئذٍ .

وعليه فإن وقت التقويم (التاريخ كما في المثال الأول السابق) وتوقيت الساعة (كما في المثال الثاني) لا تعد من هذا القبيل بل إنها إشارة غير زمانية non–Temporal reference ؛ فالتعابير التأشيرية تعتمد في تفسيرها على معرفة وقت الكلام ذي العلاقة مثل البارحة ،غدا، اليوم، الليلة ، الأسبوع الماضي ، هذا الأسبوع[٢] .. الخ ، فلحظة التلفظ تمثل المحور الذي ترتبط من خلاله هذه المبهمات الزمانية وتتحدد مواقعها عن طريق مقولة البَعْد والقَبْل[٣] .

وواضح أن جهل زمان التكلم يوقع في اللبس فقولك مثلًا بعد أسبوع يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو بعد شهر أو بعد سنة ومثل ذلك كلمات مثل أمس وغدًا والأسبوع الماضي ويوم الجمعة والسنة المقبلة ، وذكر كلمات من نحو الحرب ، أو

---

١ – ينظر : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب : ٨٧ ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٩ – ٢٠ .

٢ – ينظر : التداولية : ٣٤ .

٣ – ينظر : لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب : ١٨١ .

وزير المالية المصري دون إحالة إلى زمان بعينة يضع القارئ في حالة اضطراب إزاء فهم المراد[١] .

وقد عالج القدماء الإشاريات الزمانية من خلال تناولهم للظرف الذي يعني لديهم زمانًا أو مكانًا يقع فيه الفعل ، ومن هنا فإنهم يعدون " في " حرف الظرفية ، والظروف لديهم من المبهمات التي تُحدد دلالاتها من خلال السياقات التي ترد فيها ، فنجد سيبويه يعقد بابًا لمعالجة الظروف الزمانية بعنوان " باب وقوع الأسماء ظروفًا وتصحيح اللفظ على المعنى ، فمن ذلك قولك : متى يُسار عليه ؟ وهو يجعله ظرفًا فيقول اليومَ أو غدًا أو بعد غد ... على أنه كان السير في ساعة دون سائر ساعات اليوم أو حين دون سائر أحيان اليوم ويكون أيضًا على أنه يكون السير في اليوم كله "[٢] .

ويَبْرُز توجُّههم التداولي في ذلك المبحث من مباحثهم وربْطُهم تحليل الخطاب بالواقع اللغوي والاجتماعي حين نراهم يعدون بعض المصادر والصفات ظروفًا بالنظر إلى وظيفتها التركيبية والدلالية ، فقولهم جئتك مقدمَ الحاج وخفوقَ النجم وخلافةَ فلان وصلاةَ العصر المراد في جميع ذلك : جئتك وقت مقدم الحاج ... ونحو طويل وكثير وحديث وقليل وقديم وغيرها من الصفات إذا أقمتها مقام الأحيان لم يجز فيها الرفع ولم تكن إلا ظروفًا للأزمنة[٣].

---

١ – ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٩ – ٢٠ .

٢ – الكتاب : ٢١٦/١ .

٣ – ينظر : المبرد ، المقتضب ، تحقيق عبد الخالق عضيمة : ٣٤٣/٤ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م ، ابن السراج ، الأصول في النحو ، تحقيق د / عبد الحسين الفتلي : ١ / ١٩٣ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

وعلى حين يقيّدون انتصاب ظروف المكان بالإبهام يُطلقون في انتصاب ظروف الزمان " لأن المخصوص من الزمان يشابه المبهم في أن لا هيئة له يتميز بها من المبهمة فبقيت على أصلها وهو ثبوت الواسطة بينها وبين الفعل في تعدّيه إليها من حروف الظروف وذُكر في ذلك وجه آخر وهو أن الفعل يدل على الزمان بلفظه دون المكان فينصب الزمان وحُمل عليه المكان المبهم "[١] .

ومعالجة القدماء للدلالة الزمنية المرتبطة بالفعل لم تكن مقصودة لذاتها بل تأتي عند الحديث عن صيغه الصرفية ثم تأتي معالجتهم لدلالته الزمنية النحوية كذلك عرضًا عند الحديث عما يضامّه من حروف المعاني كنواصب المضارع وجوازمه والسين وسوف وقد ... الخ ، وما ينتاب تلك الدلالة داخل السياقات المختلفة كالشرط والمقاربة والشروع ؛ لذا يرى بعض الباحثين أن المضارع والأمر تسميتان بصريتان تقومان على أساس الشكل والمبنى إذ التسمية للصيغة وليس للزمن الذي تدل عليه[٢] ، على أننا نراه منهجًا قويمًا يراعي السياق ولا يشوبه إلا ما افترضوه سلفًا للصيغة خارج السياق من معنى الزمن وقد أخذ عليهم الدكتور تمام حسان تسميتهم " الماضي" بهذا الاسم ورأى أن محاولة الاصطلاح على أقسام الفعل بمراعاة الزمن من آثار الوقوع في براثن الفلسفة[٣] .

ويلفت دارسو الوحدة اللغوية الدالة على الزمن من خلال الاستعمال اللغوي الانتباه إلى " أن العناصر الإشارية قد تكون دالّة على الزمان الكوني الذي يُفترض

---

١ – ينظر : ترشيح العلل في شرح الجمل : ١٣١ .

٢ – ينظر : كمال رشيد ، الزمن النحوي في اللغة العربية : ٣٣ ، دار عالم الثقافة ، ١٤٢٨هت – ٢٠٠٨م .

٣ – ينظر : تمام حسان (الدكتور) ، اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٢ – ٢٤٣ ، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م ، وينظر : الزمن النحوي في اللغة العربية : ٣٨ .

سلفًا تقسيمه إلى فصول وسنوات وأشهر وأيام وساعات ... الخ وقد تكون دالة على الزمن النحوي Tense ، وقد يتطابقان في سياق الكلام وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني فتُستخدم صيغة الحال للدلالة على المضيّ وصيغة المضيّ للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة "[1] وهو ما ستعالجه الدراسة فيما يأتي .

ثانيا : الزمان الكوني في سورة النساء

نلتمس الزمان الكوني الذي نعنيه هنا في ظروف الزمان ، وأسمائه ، والصيغ الزمانية المجردة من نحو وقت الرحيل وزمن الحصاد وأية تراكيب أو تعبيرات أو مفردات تشير إلى زمن بعينه فتسهم بمرجعيتها تلك في ربط عناصر الخطاب (المتكلم والمتلقي) بزمن الحدث اللغوي وذلك على النحو الآتي :

أ – وحدات لغوية غير مُبَوَّبة ذات دلالة زمنية مقامية :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾[النساء:٢] إذ يضعنا المقام التفسيري هنا أمام ثلاثة أزمنة مختلفة يحتملها ذلك السياق بمراعاة اليُتْم وإيتاء الأموال :

الأول : اليُتْم في الماضي وإيتاء الأموال في الحال ، والثاني : اليتم في الحال والإيتاء في المستقبل . والثالث : اليتم في الحال والإيتاء في الحال وذلك أن " اليتم مختص بالصغير فما دام يتيمًا فلا يجوز دفع ماله إليه وإذا صار كبيرًا بحيث يجوز دفع ماله إليه لم يبق يتيمًا فكيف قال ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ والجواب عنه على طريقين:

---

١ – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٢٠ – ٢١ .

الأول : أن نقول : المراد من اليتامى الذين بلغوا وكبروا ثم فيه وجهان : أحدهما أنه تعالى سمّاهم يتامى على مقتضى أصل اللغة ، والثاني : أنه تعالى سمّاهم باليتامى لقرب عهدهم باليُتْم وإن كان قد زال في هذا الوقت – فاليتم هنا زمنه ماض – الطريق الثاني : أن نقول: المراد باليتامى الصغار وعلى هذا الطريق ففي الآية وجهان :

أحدهما : أن قوله تعالى (وآتوا) أمر والأمر إنما يتناول المستقبل فكان المعنى أن هؤلاء الذين هم يتامى في الحال آتوهم بعد زوال صفة اليتم عنهم أموالهم ، الثاني : وآتوا اليتامى حال كونهم يتامى ما يحتاجون إليه لنفقتهم وكسوتهم "[1] .

وتظهر تداولية الزمن هنا في ارتباطه بكلمة " اليتامى " في سياقها ولعلها تجد في اللغة تبويبًا آخر يُستشف منه الزمن أيضا حين يعدونها من باب " المجاز المرسل " لأنها استُعملت في الراشدين – على الوجه الأول – والعلاقة اعتبار ما كانوا عليه أو استصحابًا لما كان كما كان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم – يتيم أبي طالب.

وقوله تعالى : { وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ }[النساء:٢٣] اتخذ عدة تأويلات تحمل إشارات زمنية مختلفة منها :

- ما يختص بالخطاب القرآني إذ إنها إشارة زمنية خاصة بترتيب نزول الآيات والكلام هنا على طريق المعنى ، فالنهي يدل على المؤاخذة بارتكاب المنهيّ

---

١ – التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ١٧٤/٩ ، وينظر : النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القميّ) غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٢ / ٣٤٣ ، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ ، وينظر : محمود بن حمزة الكرماني ، غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٢٨٠ ، تحقيق الدكتور / شمران سركال يونس العجلي ، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة ، مؤسسة علوم القرآن – بيروت ، د.ت .

عنه أي : أنتم مؤاخَذون بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف قبل نزول آية التحريم فإنه معفوٌّ عنه .

- ما روعي فيه عدم جواز استثناء الماضي من المستقبل فالكلام مستثنى منقطع والمعنى : لكن ما مضى مغفور بدليل قوله تعالى: { إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}[النساء:٢٣]
- أن تكون " إلا " بمعنى " بعد " في إشارة زمنية إلى جاهلية هؤلاء كقوله تعالى : ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى ﴾[الدخان:٥٦] أي بعد موتتهم[١] .

ويدل " أفعل " التفضيل على اشتراك شيئين في الصفة وزيادة أحدهما على الآخر في تلك الصفة لكن التركيب الذي يرد فيه قد يحمل إشارة زمانية كونية خاصة هنا بالخطاب القرآني نحو قوله تعالى: ﴿ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾[النساء:١١] أي " في الآخرة بالشفاعة وقيل في الدنيا وقيل بالموت فتنتفعون بتركته "[٢] .

والفعل " بيَّتَ " يدل على تدبير الأمر ليلًا نحو قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾[النساء:٨١] أي " زوّرَ وموّهَ وبيَّتَ الرجل الأمر إذا دبّره ليلًا كقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾[النساء:١٠٨] والعرب تقول:أمر بُيِّت بليلٍ إذا أُحكِم"[٣].

---

١ – ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٨٠/٢ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٤٢/١ .

٢ – غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٢٨٦ ، وينظر : تفسير الطبري : ٤٧١/٦ .

٣ – ينظر : المحرر الوجيز : ٨٣/٢ ، الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٥٣ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٠٢/٢ .

ويرى الكوفيون أن اللام في قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[النساء:٢٦] بمعنى (أنْ) " وذلك أن الإرادة والأمر يقعان في المستقبل دون الماضي وعَلَم الاستقبال أن "[١] لذا يجوز أن نقول : أمرتك أن تقوم ولا يصح أمرتك أن قمت .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾[النساء:٧٧] تظهر تداولية " الأَجَل" الذي يعنون في ربطه بالواقع الاجتماعي بطوائفه ودياناته إذ رأى بعض المفسرين أن المراد موتهم على فراشهم ورأى آخرون أن هذا يحسن إذا كانت الآية في اليهود والمنافقين وأما إذا كانت في طائفة من الصحابة فإنما طلبوا التأخُّر إلى وقت ظهور الإسلام وكثرة عددهم [٢].

وقد تحمل أسباب النزول في طياتها إشارة زمنية إلى حقبة بعينها في إطار فرض الأحكام وتصحيحها فقد " نزلت ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا ﴾[النساء:١٩] في أمر الجاهلية ونزلت ﴿ وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[النساء:١٩] في أمر الإسلام "[٣] .

وإذا كان التداوليون لا يعدون التقويم نحو ٢٢ تشرين الثانى ١٩٦٣ ولا توقيت الساعة نحو يوم السبت في الثامنة والنصف من الإشاريات الزمانية لأنها لا تعتمد في تفسيرها على معرفة وقت الكلام ذي العلاقة[٤] فإن قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ ﴾[النساء:١٥٤] لا تمثل تأشيرًا زمانيًا لأنها لا تفتقر إلى السياق افتقار اليوم والغد والليلة وهذا الأسبوع .

---

١ – غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٢٩٣ ، وينظر : معاني القرآن للفراء : ٢٦١/١ .

٢ – ينظر : المحرر الوجيز : ٨٠/٢ .

٣ – إعراب القرآن للنحاس : ١٧٧ .

٤ – ينظر : التداولية : ٣٤ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾[النساء:٩٢] لا تعد من الإشارة الزمانية لهذا السبب ولا تمثل زمنًا نحويًّا بل زمان أي " كمية رياضية من كميات التوقيت تقاس بأطوال معينة كالثواني والدقائق والساعات والليل والنهار والشهور .. فلا يدخل في تحديد معنى الصيغ المفردة ولا في تحديد معنى الصيغ في السياق ولا يرتبط بالحدث " [١].

ب – الظروف :

تُعرّف الظرفية بأنها " حلول الشيء في غيره حقيقة نحو : الماء في الكوز أو مجازًا نحو : النجاة في الصدق "[٢] والظرف نوعان : ظرف زمان ، وظرف مكان ومن ظروف الزمان في سورة النساء:

" الآن " : من الظروف التي ترتبط عائديتها بالمقام لأنه يعني الحاضر والحال بالنسبة لزمن التكلُّم الذي يختلف باختلاف السياق والمتكلم ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾[النساء:١٨] فإنه متعلق بـ " تبتُ " ويشير إلى زمن التوبة وذلك أنه يصلح لكل محتضِر ممن وصفهم الله تعالى أن يسمى ذلك الوقت " الآن " على اختلاف أوقات احتضارهم وهذا معنى قول المفسرين " إذا حشرج أحدهم"[٣] .

" إذا " : تكون ظرفًا لما يستقبل من الزمان متضمنة معنى الشرط ، ويكثر مجيء الماضي بعدها مرادًا به المستقبل ، وقد تكون ظرفًا لما يستقبل من الزمان

---

١ – اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٢ .

٢ – الشريف الجرجاني (علي بن محمد ت ٨١٦ هـ) ، كتاب التعريفات : ١٤٧ ، مكتبة لبنان – بيروت ، ١٩٨٥م .

٣ – ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥١٦/٦ .

مجردة من معنى الشرط نحو قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[الليل:١] والماضي بعدها أيضًا في معنى المستقبل[١] فقوله تعالى : ﴿حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾[النساء:٦] أي : " مبلغ الرجال البالغين "[٢] وهو مستقبل بالنسبة لزمن اليُتْم جعله – أي البلوغ – غاية للإيتاء وبه تمّ تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم وكلّ ذلك مستقبل .

وكذا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾[النساء:٦] فقوله تعالى (دفعتم) وإن كان بصيغة الماضي إلا أنه في معنى المستقبل يقوي ذلك أن "الإشهاد لا يصح قبل البلوغ إنما يصح بعد البلوغ ... وعلى هذا يكون في الآية إشارة إلى ألّا يُؤخر دفع أموالهم إليهم عند حد البلوغ ولا يُمطلوا إن أونس منهم الرشد وألّا يُؤْتَوْها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار"[٣] .

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] فصيغة المضيّ هنا تنصرف إلى يوم القيامة كما يخبرنا المفسرون والدليل أنه تعالى " وصف ذلك اليوم فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾[النساء:٤٢] ... يودون أنهم لم يبعثوا "[٤] وسواء أكان العامل في الظرف هنا (جئنا) أم كانت ظرفًا لمحذوف

---

١ – ينظر : المرادي (الحسين بن قاسم) ، الجني الداني في حروف المعاني : ٣٧٠ ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، وينظر : إعراب القرآن للنحاس : ١٧٣ .

٢ – ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٥٩/٢ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦١٧/١ .

٣ – السابق : ٣٤٣/٢ ، وينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) : ٦ / ٤٠٣ .

٤ – السابق: ٤١٨/٢ ، وينظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٣١٢ .

تقديره " كيف تصنعون " فالمعنى الاستقبال الذي ينسحب أيضًا على " وجئنا بك " إما عطفًا على " جئنا " الأولى أو استئنافًا[١].

وهكذا في الآيات ٢٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٤٠، ١٤٢ "إذا" ظرف للزمان المستقبل أو ظرف تضمن معنى الشرط للزمان المستقبل كذلك .

" إذ " : تكون ظرفًا لما مضى من الزمان نحو قمت إذ قام زيد ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ ﴾[النساء:٦٤] فالمعنى أنهم " عرضوها للبوار بالنفاق والتحاكم إلى الطاغوت و(جاءوك) على إثر ظلمهم بلا ريث متوسلين بك تائبين عن جنايتهم"[٢] وكل ذلك ماض ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾[النساء:٧٢] أي "حاضرًا معهم في المعركة ... ويحتمل أن يكون المعنى : إذ لم أكن مع شهدائهم شهيدًا أو لم أكن معهم في معرض الشهادة ... ولم يؤكد القول وأتى به ماضيًا إما لأنه لتحققه غير محتاج إلى التأكيد أو لأن العدول عن المضارع للماضي تأكيد "[٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨] " إذ " ظرف لحكاية الحال الماضية ورأى بعضهم أن " إذ "

---

١ – ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٧/١ .

٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٦٨/٣ ، وينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٨٤/١ .

٣ – السابق : ٧٨/٣ .

ظرف للعامل في " معهم " وقيل متعلق بـ " يستخفون "[1] ولا يمنع ذلك من كونها لحكاية الحال الماضية .

وإذا أضيف إليها اسم زمان صالح للاستغناء عنه نحو حينئذٍ ويومئذٍ أو غير صالح نحو قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[آل عمران:٨] فإنها أيضًا اسم للزمن الماضي[2] وليست الإضافة في تلك الظروف من إضافة أحد المترادفين بل من إضافة الأعم إلى الأخص مثل شجر أراك[3] ، ويظل المعنى المراد رهن السياق فقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾[النساء:٤٢] " إذ ظرف زمان ماض استُعملت هنا للمستقبل وهو كثير في القرآن "[4] إذ التقدير : يومئذ جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا يود الذين كفروا وكلّ ذلك أمور مستقبلة .

وقد ذهب قوم من المتأخرين منهم ابن مالك إلى أن (إذ) قد تكون ظرفًا لما يستقبل من الزمان بمعنى (إذا) واستدلوا بقوله تعالى :﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾[غافر:٧٠-٧١] وذهب أكثر المحققين إلى أن " إذ " لا تقع موقع إذا وأجابوا عن هذه الآية ونحوها بأن الأمور المستقبلة لمّا كانت في علم الله تعالى مُتيقَّنة مقطوعًا بها عُبِّر عنها بلفظ الماضي[5] .

---

١ – ينظر في ذلك : السابق : ١٣٥/٣ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٩٦/١ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٠٣/٢ .

٢ – ينظر ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٩٥/١ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية– بيروت ،١٤١٦-١٩٩٦.

٣ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢٨/٢ .

٤ – ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٨/١ .

٥ – ينظر : الجني الداني : ١٨٨ .

" أبدا " : ظرف لاستغراق الزمن المستقبل ، فقوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[النساء:١٦٩] قوله (أبدًا) " لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل "[١] لذا يصف بعضهم تعلّقه بـ " خالدين " بأنه بمثابة التأكيد لئلا يُحمل على طول المكث ، فالأبد الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان[٢] في إشارة إلى زمن يختص بأحد ألفاظ الخطاب القرآني إذ لا خلود إلا في الجنة مما يشير ضمنًا كذلك إلى السكنى المؤقتة المتحوّلة الموصوفة بالزمن المنقطع .

" بعد " : من الظروف المبهمة إذ يُفهم معناه بالإضافة لما بعده ويمثل المضاف إليه حينئذٍ مركز ضبط الإشارة الزمانية – فيما نرى – حيث يعد المضاف إليه ماضيًا إذا قورن بالسابق عليها ومنه قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[النساء:١٢] فإنفاذ الوصية مركز الإشارة الزمانية إذ يأتي أولًا ثم يأتي الميراث كما يوضح المفسرون ولأهمية المضاف إليه في ذلك اشترطوا تقدير حذف مضاف هنا أي يستقر ذلك لهم بعد إخراج الوصية لأن الوصية هنا المال الموصَى به والزمن يرتبط بالحدث لا بالذات[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾[النساء:١٦٣] نجد أن زمن نوح – المضاف إليه والعائد إليه الضمير– والوحي إليه ماضٍ مقارنة بزمن النبيّين والوحي إليهم وإن كان الظرف متعلقا بـ " أوحينا " لكن هناك إشارات زمنية لهذا الوحي يضبطها المضاف إليه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

---

١ – فتح القدير : ٦٣٣/١ .

٢ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢٥٩/٢ .

٣ – ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٦ / ٤٦٩ – ٤٧٣ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٦١/١ .

اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥] أي " بعد إرسال الرسل"[١] فمؤاخذة العباد تأتي لاحقة بعد الإعذار إليهم بالرسل وإقامة الحجة عليهم بالآيات أو أن انتفاء الحجة يكون بعد إرسال الرسل فـ " بعد " ظرف لحجة لكن الإبهام الموجود في " بعد " يوضحه المضاف إليه فتتحدد أبعاد الإشارة الزمانية وكذلك القول في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾[النساء:٢٤] .

" قبل " : ظرف زمان مبهم يفهم معناه بالإضافة لما بعده ، ويلاحظ أن التركيب الذي ترد فيه " قبل " يشتمل على زمنين أحدهما يسبق " قبل " والثاني يأتي لاحقًا لها ويمثل المضاف إليه مركز الضبط للزمن الأول إذ يعد مستقبلًا مقارنة بالسابق عليها ففي قوله تعالى : ﴿ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾[النساء:٤٧] أي " من قبل يوم القيامة "[٢] فالظرف يحيل إلى ذلك اليوم الذي يعد مستقبلًا بالنسبة للإيمان الذي أُمروا به وقيل إن قوله " آمِنوا " تكليف متوجَّه عليهم في جميع مدة حياتهم فلزم أن يكون قوله " من قبل أن نطمس وجوها " واقعًا في الآخرة "[٣] وعلى القولين فالإيمان سابق على زمن الطمس .

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٦٣١/١ ، التبيان في إعراب القرآن : ٣١٠/١ .

٢ – ينظر : الأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مسعدة ت ٢١٥هـ) ، معاني القرآن : ٢٥٧/١ ، تحقيق د/ هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هت – ١٩٩٠م ، وينظر : تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢١٦ .

٣ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٤٢٤/٢ .

يقول محيى الدين درويش موضحًا ما نقصده من دلالة " قبل " الزمنية أو الإشارات الزمنية المرتبطة بالتركيب الذي ترد فيه " قبل " في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾[النساء:٩٤] .

" الجملة مستأنفة لتشبيه حالتهم الراهنة بحالتهم التي كانوا عليها "[١] وهكذا ففي قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[النساء:٢٦] أي " الهداية إلى أصول ما صلح به حال الأمم التي سبقتنا من كليات الشرائع ومقاصدها "[٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾[النساء:١٣١] يعنى أن زمن الذين أوتوا الكتاب سابق على زمن المخاطبين وقوله تعالى : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[النساء:١٣٦] أي من قبل محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾[النساء:١٥٩] – والضمير في الموضعين عائد إلى عيسى عليه السلام[٣] – يعد زمن الموت مستقبلًا مقارنة بزمن الإيمان وكلاهما مستقبل إلا أن أحدهما يسبق الآخر .

" كلّما " : ظرف زمان أو نائب ظرف لأنه يتضمن معنى " في " و " ما " مصدرية زمانية ومعناه كلّ وقت أو في كل وقت ، يتضمن معنى الشرط ، يليه الماضي من الأفعال لكن التركيب الذي يتصدره يُطبع بطابع الاستمرار والتأبيد لأنها تفيد التكرار وخير تعبير عما نريد في دلالتها الزمنية قول الإمام القشيري (ت

١ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢/ ٩٠ .
٢ – التحرير والتنوير : ٥/ ٢٠ .
٣ – ينظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٣١٢ .

٤٦٥هـ) في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦] : " فَهُمْ مؤبدةٌ عقوبتهم "[١] وذلك أن المعنى " إنا نعيد النضيج غير نضيج "[٢] .

وهكذا في قوله تعالى: ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾[النساء:٩١] ويقوّي معنى الاستمرار هنا سبقها بالسين في قوله تعالى : ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾[النساء:٩١] فالسين هنا إشارة إلى أن عبثهم بالمؤمنين هذا أمر مستمر وإن كان قد مضى وهو ما يتناسب وسياق الحال وذلك أن رجالًا من الكفار كانوا إذا أتَوْا المدينة أسلموا لأجل ألّا يقاتلوهم وإذا أتوا لقومهم كفروا فأتى المولى سبحانه وتعالى بالسين إشارة إلى أن حالتهم هذه هي ديدن مستمر لهم ويرى ابن هشام أن الاستمرار إنما استُفيد من المضارع نحو : فلان يقري الضيف والسين مفيدة للاستقبال إذ الاستمرار لا يكون إلا في المستقبل[٣] .

" لمّا " : المراد هنا " لمّا " التعليقية التي تربط بين جملتين الثانية منهما مترتبة على الأولى ، وقد اختُلف فيها فرآها سيبويه حرفًا ورآها أبو علي الفارسي ظرفًا بمعنى حين وجمع ابن مالك بين المذهبين فقال : إذا وليها فعل ماض لفظًا ومعنًى فهي ظرف ، بمعنى " إذ " فيه معنى الشرط أو حرف يقتضي فيما مضى وجوبًا لوجوب[٤] وسواء أكانت حرفًا أم ظرفًا فإن دلالتها الزمنية المضيّ كما في قوله تعالى

---

١ – القشيري (الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان) ، تفسير القشيري المسمَّى لطائف الإشارات : ٢١٣/١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٨هـ –٢٠٠٧م

٢ – إعراب القرآن للنحاس : ١٩٠ .

٣ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٨٥/٢ .

٤ – ينظر : الجني الداني : ٥٩٤ .

: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[النساء:٧٧] والمضي هنا يشمل المترتِّب وما ترتّبَ عليه .

" المصادر " : من تداولية الزمن عندهم وربطهم تحليل الخطاب بالواقع الاجتماعي أن ينصبوا بعض المصادر على الظرفية الزمانية فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾[النساء:١٩] فهو منصوب على الظرفية الزمانية عند أبي حيان إذ يراه مستثنى من أعم الظروف كأنه قيل: ولا تعضلوهن في وقت من الأوقات إلا وقت يأتين بفاحشة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾[النساء:٩٢] ، يرونه مستثنى من أعم الظروف أي " حين يتصدقون "[١] وعموم الظرف هنا مما يعطيه صفته التأشيرية إذ يصلح لكلّ مخاطَب ويصبح المضاف إليه الذي يزيل ذلك العموم والإبهام مركز ضبط الإشارة الزمانية .

ثالثا : الزمن النحوي في سورة النساء

يقصد به الزمن الذي يفيده الفعل وشبهه داخل السياق فالزمن النحوي وظيفة في السياق يؤديها الفعل أو الصفة أو ما نُقِل إلى الفعل من الأقسام الأخرى للكلم كالمصادر والخوالف وذلك في مقابل الزمن الصرفي وهو وظيفة الفعل بصورته المفردة خارج السياق فلا يستفاد من الصفة ولا المصدر [٢].

والمعروف أن الزمن الصرفي للفعل إما ماض تدل عليه صيغة " فعَلَ " ونحوها أو يحتمل الحال والاستقبال وهو ما تدل عليه " يفعل " ونحوها أو استقبال تدل عليه " يفعل " ونحوها مقترنة بما يخصصها لذلك أو " افعلْ " مطلقًا .

---

١ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٣٩/١ ، ٨٧/٢ على الترتيب .

٢ – ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٠ .

لكن الزمن الذي تفيده هذه الصيغ داخل التركيب قد يتفق مع الزمن الصرفي وقد يختلف تمامًا بمعونة القرائن اللفظية والمعنوية .

فمما يتفق فيه الزمنان النحوي والصرفي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ﴾ [النساء:٩٧] "يجوز أن يكون الفعل ماضيًا ويجوز أن يكون مستقبلًا حُذف إحدى تاءيه "[١] والسياق يحتملها كذلك ، ومنه دلالة الأمر على المستقبل كما في قوله تعالى : ﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء:٤] وإن كان في الآية الكريمة زمن ماض يشير إليه سياق الحال إذ كانت العرب " في الجاهلية لا تعطي البنات من مهورهن شيئا "[٢] وكذلك الأمر في قوله تعالى : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥] وإن كان في الآية زمن مستقبل آخر يدل عليه السياق لا صيغة الفعل إذ المراد " إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويفضل فلا تدخره عما تدعو إليه حاجتهم معلومك خشية فقر في الغد " [٣].

لكن الزمن الصرفي يتعارض كثيرًا مع الزمن النحوي المستفاد من المقام وقد يتخصص فمن ذلك :

دلالة الماضي على الاستقبال أو الاستمرار :

ففي إطار الشرط يصبغ الماضي بمعنى الاستقبال كدلالة " تركوا " و " خافوا " عليه بعد " لو " الشرطية في قوله تعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا

---

١ – غرائب التفسير وعجائب التأويل : ٣٠٤ .

٢ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٤٩/٢ .

٣ – تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات : ١٩٦/١ .

خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾[النساء:٩] أي " خافوا عليهم آفات المفارقة بسفر أو موت "[١] وهو مستقبل ، كذا أوّلوا الترك بمشارفة الترك أي وليخش الذين إن شارفوا وقاربوا أن يتركوا ليتوجّه الخطاب إليهم قبل الترك لأنهم بعده أموات وليصح وقوع " خافوا " جزاءً وذلك لكون الخوف منتفيا بعد الموت[٢] وكلّ ذلك يقودنا إلى معنى الاستقبال والمعروف أن " لو " لا تستعمل في غير المضي غالبا لكنها هنا شرطية بمنزلة "إنْ " وإن رأى بعضهم صحة حمله على الماضي وأن غاية ما فيه هنا " أن ما جُعل شرطا لـ " لو " مستقبل في نفسه أو مقيد بمستقبل وذلك لا ينافي امتناعه فيما مضى لامتناع غيره ولا يحوج إلى إخراج " لو " عما عُهد من معناها إلى غيره "[٣] وكذا الماضي بعد " إن" الشرطية كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾[النساء:٦] فزمن " آنستم " هنا الاستقبال لأن " إن الشرطية وأخواتها مختصة بالمستقبل فلا يكون شرطها ولا جزاؤه بمعنى الماضي ولا بمعنى الحال "[٤] .

و" أصابك " من قوله تعالى : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾[النساء:٧٩] بمعنى يصيبك وقد اقتضى ذلك كون " ما " شرطية " ولا يحسن أن تكون بمعنى الذي لأن ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضيًا مخصصًا والمعنى على العموم والشرط أشبه "[٥] .

---

١ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٩/٢ .

٢ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٢٣/١ .

٣ – شرح التسهيل : ٩٦/٤ ، وينظر : الجني الداني : ٢٨٤ – ٢٨٦ .

٤ – السابق : ٩٢/٤ .

٥ – التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٨/١ .

ويختص المضارع بالاستقبال لوقوعه شرطًا في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣] ويقتضي السياق كذلك كون الجزاء مستقبلًا ، وإن قدر بـ " جازاه بدليل قوله (وغضب الله عليه ولعنه) فعطف عليه الماضي"[١] ، فالتقدير هنا – فيما نرى – من صنعة اللفظ أما المعنى فيصرف المقدَّر وما عُطف عليه إلى الاستقبال .

و" ألقى" في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[النساء:٩٤] بمعنى يلقي " لأن النهي لا يصح إلا في المستقبل "[٢] وهو يناسب تعميم الحكم وإن كانت صيغة الماضي فيها إشارة زمنية إلى مَن نزلت فيه الآية .

و" الأصل في (كان) الدلالة على دوام مضمون الجملة إلى زمن النطق بها دون تعرض لانقطاع... فإن قُصِد الانقطاع جيء بقرينة "[٣] كقوله تعالى ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾[آل عمران:١٠٣] ويثبت ذلك لها جليًّا في دلالتها على ثبوت الصفة واستمرارها عند ارتباطها في السياق بصفات الله تعالى نحو ﴿ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١] فـ(كان) هنا " ليست لتحديد الماضي فقط بل المعنى كان وهو يكون "[٤] وكذا في قوله تعالى :﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا ﴾[النساء:١١] يقول الخليل (ت ١٧٠ هـ) : " كان ههنا منخلع عن اعتبار الاقتران بالزمان لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان ولكنه من الأزل إلى الأبد عليم حكيم وقال سيبويه : إن القوم لمّا

---

١ – السابق : ٢٩٢/١ .

٢ – السابق: نفسه .

٣ – شرح التسهيل : ٣٤٥/١ .

٤ – المحرر الوجيز : ٥/٢ .

شاهدوا علمًا وحكمة تعجبوا فقيل لهم : إن الله كان كذلك أي لم يزل موصوفًا بهذه الصفات "[١] فليس في " كان " دليل على نفي الحال والمستقبل كما يقول أبو العباس ورأى آخرون أن المعنى : (إن الله كان عليمًا) بخلقه قبل أن يخلقهم (حكيمًا) بما يدبّرهم به [٢].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[النساء:١٦] يعني " أن الله لم يزل راجعًا لعبيده إلى ما يُحبُّون إذا هم راجعوا ما يُحبّ منهم من طاعته "[٣] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[النساء:٧٦] فقد " دخلت (كان) دالة على لزوم الصفة "[٤] .

تخصيص زمن المضارع أو قلبه في السياق :

يُخصص زمن المضارع للاستقبال إذا سُبق بالسين أو سوف ويكثر ذلك في آيات الجزاء بالجنة والنار إذ يقتضي ذلك سياق الحال ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:١٤٦] ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠] والمقام التفسيري يجعل الفعلين للاستقبال لأن قوله تعالى "(إنما يأكلون في بطونهم نارا) : يوم القيامة بأكلهم أموال اليتامى ظلمًا في الدنيا "[٥] وإن رأى بعضهم أن المضارع " يأكلون " جاء " دون سين الاستقبال و (سيصلون) بالسين لأنه لما كان لفظ (نارًا) مطلقًا قُيِّد في قوله (سعيرًا) إذ هو

---

١ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٦٧/٢ .

٢ – ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ١٧٥ .

٣ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥٠٦/٦ .

٤ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٧٩/٢ .

٥ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٤٥٤/٦ .

الجمر المتقد "[1] وهكذا في الآيات التي تتحدث عن الجنة والنار نحو قوله تعالى: ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٧٢] وقوله تعالى : ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾[النساء:١٧٥] .

والسياق وحده يلزمنا ذلك في نحو قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء:١٧٣] ، فالأفعال " يوفيهم " و " يعذبهم " تتحدث عن الجزاء في الآخرة كذلك[2] ومعنى الشرط الذي تحمله " أمّا " يناسب ذلك .

وتخلصه " لن " للاستقبال كقوله تعالى : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ ﴾[النساء:١٧٢] وكذلك " لا " الناهية كقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[النساء:٣٢] و" التمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل كالتلهف فإنه نوع منها يتعلق بالماضي "[3] .

ولام الأمر مما يخلص المضارع للاستقبال نحو قوله تعالى : ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[النساء:٩]

---

١ – إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٢٦٤/١ .

٢ – ينظر : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : ٢٤٦/١ ، راجع تصحيحها الشيخ علي محمد الضبّاع ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الأخيرة ، د.ت .

٣ – الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ١٤٧ .

رابعا : الزمن والجهة

نقصد بالجهة ما لا يوصف من الزمن بالمضيّ على إطلاقه ولا بالحال ولا بالاستقبال على إطلاقهما وإنما زمن يقع بين بين وتفصح عنه " اصطلاحات القرب والبعد، والانقطاع والاتصال ، والتجدد والانتهاء والاستمرار، والمقاربة والشروع "[١] .

ومن ذلك دلالة " حُرِّمَتْ " على الحال المستمرة إلى الأبد في قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . . . ﴾[النساء:٢٣] وليس على المضيّ كما تُوهم الصيغة لأنه " إنشاء للتحريم كقول القائل (بعتُ) أو (طلقتُ) لا إخبار عن التحريم في الزمن الماضي والخطاب لأولئك الحاضرين بالذات ولمن عداهم من الأمة بالتبعية والأصل في كل حكم هو الاستمرار والتأبيد ما لم ينسخه ناسخ"[٢] ، ومما يدل على الحال المستمرة إلى الأبد لأنه إنشاء للتحريم قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا ﴾[النساء:١٩] ومنه أيضًا لأنه على معنى الإنشاء ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٤] وقوله تعالى : ﴿لَّعَنَهُ اللّهُ ﴾[النساء:١١٨] .

ومن ذلك : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ﴾[النساء:٩٢] وذلك لأن النفي هنا بمعنى النهي المقتضي التحريم ... ولو كان هذا النفي على معناه لكان خبرًا وهو يستلزم صدقه فلا يوجد مؤمن قتل مؤمنًا قط ... وقيل المعنى : ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له ذلك الآن بوجه"[٣] .

---

١ – اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٥ – ٢٤٦ .

٢ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٨٣/٢ .

٣ – الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٧٣ .

ومما يدرج في معاني الجهة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[النساء:١٧] أي عقيب المعصية فالمراد من هذا القرب قبل حضور زمان الموت ومعاينة أهواله و(مِن) إما لابتداء الغاية أي يجعل مبتدأ توبته من زمان قريب من المعصية أو للتبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمّى ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زمانًا قريبًا ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد[١] فزمن التوبة المراد هنا إما ماض قريب بالنظر إلى زمن المعصية وإما مستقبل قريب بالنظر إلى حضرة الموت ويقودنا حرف العطف " ثم " إلى إشارة زمنية ثالثة إذ إنه إشعار بأن التوبة جاءت متأخرة [٢].

ومما يدل على الماضي القريب في بعض تفسيرات قوله تعالى : ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء:٢] أنه تعالى سماهم باليتامى لقرب عهدهم باليتم وإن كان قد زال في هذا الوقت كقوله تعالى : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[الشعراء:٤٦] أي الذين كانوا سحرة قبل السجود [٣].

ونواصب المضارع تنقله للاستقبال كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا﴾[النساء:١٤١] لكنه قد يكون المستقبل البعيد (يوم القيامة) إذا كان

---

١ – ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٧٤/٢ ، وينظر : معاني القرآن للفراء : ٢٥٩/١ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٦ / ٥٠٧ ، الكشاف : ٢٢٧/٤ .

٢ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٣٦/١ .

٣ – ينظر : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : ١٧٤/٩ .

المراد بالسبيل النصر والغلب وقد يكون المستقبل القريب (الدنيا) إذا كان المراد به الحجة[١] .

وينقلنا السياق التفسيري في قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[النساء:١٧٠] إلى ما يمكن تسميته بالحال المستمرة فقوله تعالى : (إن تكفروا) أي وإن تستمروا على كفركم "[٢] وهذا يعني أنهم في حالة كفر ويؤيد ذلك قوله " فآمنوا " والحال (شهداء لله) من قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[النساء:١٣٥] ضعيفة " لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط "[٣] فكان في جعلها من تعدد خبر كان اتساع في جهة الزمن واستمراره.

ووقت الصلاة لمن عدم وجود الماء تتوزعه عدة جهات زمنية بالنظر إلى ظنّ المكلَّف فله[٤] :

- أن يتيمّم ويصلي في أول الوقت (وقت الصلاة الحال / على وقتها) إذا غلب على ظنه اليأس من وجود الماء .
- أن يتيمّم وسط الوقت (وقت الصلاة ماض قريب) إذا غلب على ظنه وجود الماء وقوي رجاؤه له .
- أن يتيمّم آخر الوقت (وقت الصلاة ماض بعيد) إذا تساوى عنده الأمران .

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٦٢٠/١ .

٢ – السابق : ٦٣٣/١ .

٣ – السابق : ٦١٦/١ .

٤ – ينظر : الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٠٤ .

فكل تلك الجهات الزمنية تتحقق في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾[النساء:٤٣] وسياق حال المكلف يعيّن إحداها .

وتقدر " قد " قبل الماضي في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾[النساء:٩٠] ونحوه – ومحلها نصب على الحال – لتُقرّبه إلى الحال وتقوي ذلك فيه[١] ومنه قوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[النساء:٢١] إذ تقدر " قد " مع الحال المعطوفة (أخذن) ليصبح حالا [٢].

وكما أن القرب والبعد في الزمان من معاني الجهة يعد القليل والكثير منه – فيما نرى – من معانيها أيضًا ومن ذلك: ﴿ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾[النساء:١٤٢] أي وقتًا قليلًا في بعض تأويلاته فـ " قليلًا " نعت لزمان محذوف وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾[النساء:١٥٥] أي زمانًا قليلًا والظرف متعلق بـ " يؤمنون " وقوله : ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا ﴾[النساء:١٦٠] أي زمانًا كثيرًا في بعض تأويلاته .

---

١ – ينظر : معاني القرآن للفرّاء : ٢٨٢/١ ، غرائب التفسير وعجائب التأويل :٣٠٢ .

٢ – ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٦٦/١ .

المبحث الثالث

التأشير المكانيّ ''Spatial deixis'' في سورة النساء

توطئة :

يقصد بالإشاريات المكانية " عناصر إشارية تُحدَّد مراجعها بالنظر إلى مكان المتكلم "[١] .

فمركز ضبط الإشارة المكانية هو مكان التلفظ الذي يتم في إطاره الحدث التواصلي إذ " يتأسس المكان في تلك النقطة من الفضاء التي يتواجد فيها المتكلم أثناء الحديث (لحظة التلفظ) فإن قلنا مثلًا : خديجة هنا / في الجامعة يتعين أن خديجة على مقربة من المتحدث الموجود أثناء قوله في الجامعة "[٢] .

وتكتسب الإشاريات المكانية مشروعية إسهامها في الخطاب من أن المرسل لا ينفك عن المكان عند تلفظه بالخطاب " وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقًا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتين رئيستين للإشارة إلى الأشياء هما : إما التسمية بالوصف من جهة أولى وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى "[٣] .

تقسم المبهمات المكانية من منظور علم التراكيب إلى قسمين : أسماء الإشارة Démonstratifs والظروف Adverbes ، وقسمها آخرون إلى ظروف المكان

---

١ – المصطلحات الأساسية في لسانيات النص : ٨٧ .

٢ – لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب : ١٢٤ .

٣ – استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية : ٨٤ .

نحو هنا وهناك وأمام ووراء ، وأسمائه نحو المسجد ، مهبط الوحي ، موطن الحيوانات ، والصيغ المكانية المجردة نحو قولهم ساحة الحرب[١].

والأماكن في الدرس القديم منها ما استُعمل اسمًا يتصرف في جميع الإعراب وظرفًا ، ومنها ما لا يُرفع ولا يكون إلا ظرفًا وليست كالأزمنة التي يعمل فيها كلّ فعل فينصبها نصب الظروف لأن الأمكنة أشخاص لها خلق وصور تعرف بها كالجبل والوادي ومكة والمدينة والمسجد والدار ، وإنما الظروف منها ما كان مبهمًا خاصة نحو خلف وقدام ووراء[٢] . وبناءً على ما سبق ولأن تحديد المكان (القرب ، البعد ، الخلف ، الأمام ... الخ) وتحديد مرجع الإشارة المكانية رهن بعوامل عدة منها وضعية المتكلم والدوالّ اللغوية والسياقية ، فإلى جانب الاستعلام النسبي للمتكلم نجد الاستعلام المطلق والاستعلام السياقي Repérage cotextuel الذي يعتمد كذلك على السياق اللغوي مثل قرب المحطة ، ويسار المستشفى[٣] ، فإننا نلتمس الإشاريات المكانية في سورة النساء في كلّ الصيغ المكانية المُبوَّبة قديمًا وحديثًا والصيغ المكانية المجردة (غير المبوبة) التي تحمل إشارات مكانية ترتبط بسياقها .

أولا : أسماء الإشارة

يُحدّ اسم الإشارة بأنه " الدالّ بالوضع على مسمى وإشارة إليه "[٤] ويرتبط مفهوم الإشارة عند اللغويين بالحضور والمشاهدة من ناحية وبالقرب والبعد حقيقة أو

---

١ – ينظر : توفيق ، أحمد محمود زكريا ، الإشاريات التداولية وتجلّياتها في التفسير نماذج من سورة الأنفال : ٣٩ ، ضاد – مجلة لسانيات العربية وآدابها ، المجلد ٢ ، العدد ٣ ، أبريل ٢٠٢١ .

٢ – ينظر: الأصول في النحو: ١٩٧/١ – ١٩٨.

٣ – ينظر : لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب : ١٢٤ .

٤ – شرح التسهيل : ٢٥٢/١ .

مجازًا من ناحية أخرى ، فـ " أصل الإشارة أن يكون إلى مشاهَد في الوجود أو منزَّل منزلته "[١] ، وذكر " هذا " و " ذاك " بعد العَلَم نحو " زيد هذا " يذهب به مذهب الحاضر والشاهد القريب وكذلك مذهب البعيد والمتنحي عند سيبويه[٢] .

وربْطُ التداوليين أسماء الإشارة في بعض السياقات بالتأشير المكاني ليس جديدًا على الدرس اللغوي فقد ربط القدماء بينهما كذلك فعندهم أن " مَن قال في الإشارة إلى الشخص القريب (ذا) قال في الإشارة إلى المكان القريب (هنا) .. ومن رأى مصاحبة التنبيه فقال : هذا قال (ههنا) . ومن قال : ذاك قال : هناك ومن قال ذلك قال : هنالك ... ومن قال : هذاك جامعًا بين التنبيه والخطاب قال : ههناك "[٣] .

وتتضح تداولية هذه الأسماء ودورها في التأشير المكاني – إن دلّت على ذلك مكانًا أو مكانةً – من أنه " يستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل هذا وذاك وهنا وهناك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان فهي تعتمد على السياق المادي المباشر immediate physical context الذي قيلت فيه "[٤] .

ومنها في سورة النساء :

يشير العنصر الإشاري " ذلك " من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[النساء:١٣] إلى دخول الجنات على

---

١ – التحرير والتنوير : ٥٧/٥ .

٢ – ينظر : الزجاج ، إعراب القرآن المنسوب إليه : ٨٩٨ ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري – القاهرة ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، د. ت .

٣ – شرح التسهيل : ٢٥٠/١ .

٤ – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٢٢ – ٢٣ .

الوجه المذكور"[١] وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ ﴾ [النساء: ٧٠] إشارة إلى معيّة المنزلة في الجنة بعد قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩] .

ويشير العنصر الإشاري " هذه " في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: ٧٥] إلى مكة وقد استفيد ذلك من الناحيتين : النحوية بإبدال القرية من اسم الإشارة ، والتداولية حيث يقضي المقام الخارجي وعالم النص بأنها مكة " سألوا الخروج منها لِما كدّر قدسها من ظلم أهلها "[٢]

وقد تُنقل عناصر الإشارة إلى المكان للإشارة إلى ما يسمى المسافة العاطفية emotional distance وتسمى عندئذٍ الإشارة الوجدانية ومنها ما عُرف لدى التداوليين بالتباعد النفسيpsycohlogical distance ، فقد " يميل المتكلم إلى معاملة الأشياء البعيدة ماديًا على أنها بعيدة نفسيًا مثلًا (ذلك الرجل هناك) مع ذلك قد يرغب المتكلم في جعل شيء قريب ماديًا (مثلا عطر استنشقه) بعيدًا نفسيًا بقوله (لا أحب ذلك العطر) وفقًا لهذا التحليل فإن كلمة مثل (ذلك) لا تمتلك معنًى دلاليًا ثابتًا ولكنها تُشبع بمعنًى ما في سياق المتكلم "[٣] .

---

١ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :٤٤٢/١ .

٢ – التحرير والتنوير : ١٢٣/٥ .

٣ – التداولية : ٣٣ ، وينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر :٢٣ .

وهو قريب مما أسماه علماء المعاني التحقير بالقرب نحو قوله تعالى : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾[الأنبياء:٣٦] والتعظيم بالبعد كقوله تعالى : ﴿الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾[البقرة:١ – ٢] والتحقير بالبعد كذلك كما يقال : ذلك اللعين فعل كذا[١]

وقد كثرت أسماء الإشارة المعبّرة عن التأشير المكاني المجازي في سورة النساء وتنوّع ذلك بين دلالتها على القرب الاعتباري أو البعد ، وعلوّ المكانة أو انحطاطها ، فمما يدل على التعظيم بالبعد أو علو المكانة في إشارة إلى منزلة التوبة والتائبين عند الله تعالى العنصر الإشاري " أولئك " في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[النساء:١٧] والبعد الذي عبّر عنه اسم الإشارة هنا يُلتمس من جانبين :" البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد ويجوز أن يكون ذلك إيذانًا ببعد مرتبتهم ورفعة شأنهم من حيث إنهم تائبون "[٢] .

وإذا كان علماء المعاني يرون أن المسند إليه اسم الإشارة يكون " للتنبيه عند تعقيب المشار إليه بأوصاف على أنه جدير بما يرد بعده من أجلها" [٣] نحو ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة:٥] فإننا نراه أيضًا من قبيل التعظيم أو التباعد النفسي وفقًا لتلك الصفات ، فمما يعد تعظيمًا قوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ

---

١ – ينظر : القزويني الخطيب (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن) ، التلخيص في علوم البلاغة : ٦٢ ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٠٤م .

٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٤٤٨/٢ .

٣ – التلخيص في علوم البلاغة : ٦٢ – ٦٣ .

رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩] فقد " جيء باسم الإشارة في جملة جواب الشرط للتنبيه على جدارتهم بمضمون الخبر عن اسم الإشارة لأجل مضمون الكلام الذي قبل اسم الإشارة "[١] ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء:١٤٦] وقوله تعالى : ﴿فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[النساء:٩٩] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾[النساء:١٥٢] في إشارة إلى منزلة التائبين / المستضعفين / المؤمنين على الترتيب ، وأنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة لما تقدم من صفاتهم ويعد المسند إليه هنا (اسم الإشارة) رابطًا مهّد للنص على الحكم الذي يمثله المسند بما يبرز دوره في تدرُّج الخطاب وتوالده وانبثاقه

ومما يدل فيه العنصر الإشاري " أولئك " على التحقير بالبعد أو ما يمكن تسميته بالتباعد النفسي لأن المشار إليهم بعيدون بصفاتهم وأفعالهم عن نيل منزلة القرب وشرفه قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[النساء :١٨] فـ (أولئك) " أي المذكورون من الفريقين المترامي حالهم إلى الغاية القصوى من الفظاعة "[٢] مبعدون عن القرب الاعتباري لأنهم من التوبة أبعد لموتهم على الكفر .

وقوله تعالى: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[النساء:٦٣]" أراد بما في قلوبهم : الكفر الذي أبطنوه وأمرَ رسوله بالإعراض عنهم "[٣] وكذلك قوله تعالى : ﴿

---

١ – التحرير والتنوير : ٥/ ١١٦ .

٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :٤٤٩/٢ , وينظر : تفسير الطبري : ٥٢٠/٦ . .

٣ – التحرير والتنوير : ١٠٨/٥ .

وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾[النساء:٩١] فهؤلاء فريق لا سعي لهم إلا في خُوَيصتهم فكانوا يأتون المدينة فيظهرون الإسلام ويرجعون إلى مكة فيعبدون الأصنام ليأمنوا الفريقين[١] وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـئِكَ هُـمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء:١٥١] "أي الكاملون في الكفر"[٢] في إشارة إلى أعداء الله اليهود والنصارى بصفاتهم وأحوالهم المذكورة في الآية السابقة . وهكذا في الآيات ٥٢ ، ٩٧ ، ١٢١ يأتي اسم الإشارة " أولئك " للتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدم من صفاتهم المذمومة وأحوالهم المشينة .

ومن دلالة اسم الإشارة على التحقير بالقرب قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] فالإشارة " إلى كفار قريش وغيرهم وإنما خُصّ كفار قريش بالذكر لأن وظيفة العذاب أشد عليهم منها على غيرهم لعنادهم عند رؤية المعجزات "[٣] وهو أدعى إلى تحقيرهم والاستهزاء بهم وقد ناسب ذلك التوبيخ الذي سيق له الاستفهام : فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة أمعذبين أم منعمين ؟!.

يقول ابن عاشور في هذه الآية ونحوها : " وقد اصطلح القرآن على إطلاق إشارة (هؤلاء) مرادًا بها المشركون وهذا معنى أُلهمنا إليه واستقريناه فكان مطابقًا "[٤] ، والإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلا ﴾[النساء:٥١]

---

١ – ينظر : السابق : ٥/١٥٤ – ١٥٥ .

٢ – فتح القدير : ١/٦٢٤ .

٣ – الجامع لأحكام القرآن : مج ٣ / ج٥ : ١٧٧ .

٤ – التحرير والتنوير : ٥/٥٧ .

إلى الكافرين كما يفهم من الصلة وسياق الآية يشير إلى الاستهزاء بهم وقد ناسب ذلك استعمال اسم الإشارة هؤلاء.

ثانيا : الظروف المكانية

" أينما " : ومنه قوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾[النساء:٧٨] في إشارة إلى عموم ملاذهم وأماكنهم – في السفر والحضر– واستوائها في عدم منعهم عن الأجل المقدر ولا يخفى ما في " أين " من إبهام يصلح لذلك العموم فهي تقع على الجهات الست وكلّ مكان يُستفهم عنه .

" بين " : البينية هنا مجازية ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾[النساء:٣٥] يوضح ذلك قول العكبري : " بين هنا : الوصل الكائن بين الزوجين " [١] فالشقاق الخلاف والشق الجانب لأن كلًّا من المتخالفين في شق غير شق الآخر في إشارة إلى التباعد وقلة الوصل وإضافة الشقاق إلى ذلك الظرف – على الرغم من قلة تصرفه – " إما لإجراء الظرف مجرى المفعول كما في قولنا : يا سارق الليلة أهل الدار أو الفاعل كقولهم : صام نهاره والأصل شقاقًا بينهما .. فللملابسة بين الظرف والمظروف نُزِّل منزلة الفاعل أو المفعول به وشُبِّه بأحدهما ثم عومل معاملته في الإضافة إليه "[٢] ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء:٦٥] فهو ظرف لـ " شجر " وذلك مجازيته وقوله تعالى في شأن المنافقين : ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء ﴾[النساء:١٤٣] نجد أن الظرف متعلق بـ " مذبذبين " في إشارة إلى جامع نفاقهم وتحقيرهم وتنفير الفريقين من صحبتهم لينبذهم

---

١ – التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٥/١ .

٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٢٦/٣ ، وينظر : الكشاف : ٢٣٥/٤ .

الفريقان وليس المراد إثبات حالة وسط للمنافقين بين الإيمان والكفر فليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين[١] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾[النساء:١٥٠] إشارة إلى كفرهم بالرسل وإيمانهم بالله فكان ذلك تفريقًا بين الله ورسله وهذا معنى تعَلُّق الظرف بـ " يفرقوا " وقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾[النساء:١٥٠] إشارة إلى ما أرادوا من دين وسط بين الكفر والإيمان[٢] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء:١٥٢] يشير العنصر الإشاري " بين " إلى إيمانهم بجميع الرسل[٣] وذلك تعلُّقه بعدم التفريق ، وهكذا في باقى الآيات أرقام : ٣٥ ، ٥٨، ٧٣ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١٢٨ نجد البينية المجازية الناتجة عن المظروف اسم المعنى أو المتعلَّق أو ما أضيف إليه الظرف من أسماء المعاني .

" تحت " : اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى ولكلّ مكان علوّ وسفل ولا يقتضي ذلك ارتفاع ما أُضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنه بجهة سفله فلا حاجة إلى تأويل الجنة في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[البقرة: ٢٥ ،النساء : ١٢٢] بالأشجار لتصحيح التحت ولا إلى غيره من التكلفات ، وقوله : (من تحتها) يظهر أنه قيد كاشف قُصِد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع

---

١ – ينظر : التحرير والتنوير : ٥/٢٤٠ – ٢٤٢ .

٢ – ينظر : فتح القدير : ١/٦٢٤ .

٣ – ينظر : السابق : ١/٣٢٥ .

لقصد الترغيب وهذا من مقاصد البُلَغاء إذ ليس البليغ يقتصر على مجرد الإفهام [١] فالإشارة على ذلك الترغيب وإن رأى الطبري أن " (جنات) يعني بساتين تجرى من تحتها الأنهار"[٢] فالظرفية على ذلك حقيقية والجنة اتفاقًا مع ابن عاشور – وليس مخالفة للطبري – لا تقتصر على البساتين وقد يكون من تمام الإشارة الظرفية إبراز أمان أهل الجنة وأمنهم فلم يقل مثلًا تجري فيها الأنهار .

" حيث " : ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ ﴾[النساء:٨٩] فقوله تعالى : " (حيث وجدتموهم) عام في الأماكن من حل وحرم "[٣] في إشارة إلى عظيم جرمهم وهوانهم على الله وعليه إباحة قتلهم وأسرهم إن أعرضوا عن التوحيد والهجرة دون قيد ، وكذلك قوله تعالى : { فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثقفتموهم }[النساء:٩١] أي حيث أصبتموهم أو حيث تمكنتم منهم فالعموم الذي ينطوي عليه العنصر الإشاري هنا يشير إلى هوان منزلتهم وتحقير شأنهم .

" دون " : " نقيض فوق ويكون ظرفًا بمعنى أمام ووراء وفوق ضد وبمعنى غير "[٤] وقد ورد كثيرًا بمعنى " غير " في سورة النساء ووجه استعماله بمعنى " غير " وانتقاله عن الظرفية أنك إذا قلت : اتخذتُ من دونك صديقًا فأصله : اتخذت من جهة ومكان دون جهتك ومكانك صديقًا فهو ظرف مجازي ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مع كونه غيرًا فصارت دلالته دلالة غير بهذا الترتيب وقولنا " من

---

١ – ينظر : التحرير والتنوير : ٣٥٠/١ .

٢ – تفسير الطبري : ٥٠٥/٧ .

٣ – الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٧٠ ، وينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٤٦٦/٢ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٧٩/٢ .

٤ – القاموس المحيط : باب النون فصل الدال .

دون " لفظ يعطي غيبة ما يضاف إليه "دون" عن القضية التي فيها الكلام[١] فمن استعماله بمعنى " غير " قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨، ١١٦] في إشارة إلى عظيم الإثم إذا كان شركًا بالله فـ " ذلك " إشارة إلى الشرك وهي المضاف إليه الذي يزيل إبهام (دون) " وفيه إيذان ببعد درجته في القبح أي يغفر ما دونه من المعاصي وإن عظمت "[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[النساء:١٢٣] " يعني من بعد الله وسواه "[٣] لأنه لما بدأت الآية بأن الجزاء ليس بأمانيّ الناس ختمت بذلك " لرد عقيدة من يتوهم أن أحدًا يغني من عذاب الله "[٤] فحكم الله ووعده ووعيده يشمل كلّ مجازَى ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء:١٣٩] أي " متجاوزين ولاية المؤمنين "[٥] فكأن الولاية مظروف لغير المؤمنين لم تحتوها جهتُهم وذلك مجازيته في إشارة إلى جرم هؤلاء وابتعادهم عن صفة الإيمان وتمكن النفاق منهم .

يقول أبو حيان في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء:١٤٤] ، " قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي والمؤمنون العارفون

---

١ – ينظر : أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف ت ٧٥٤هـ) البحر المحيط في التفسير : ٨٤/٢ ، ٨٥ ، تحقيق صدقي محمد جميل ، الشيخ زهير جعيد ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٣٢هـ – ٢٠١٠م .

٢ – ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٥٠/٣ ، وينظر : تفسير الطبري : ٤٨٥/٧ .

٣ – تفسير الطبري : ٥٢٥/٧ .

٤ – التحرير والتنوير : ٢٠٩/٥ .

٥ –فتح القدير : ٦١٨/١ ، وينظر تفسير الطبري : ٦٠١/٧ .

المخلصون غُيّب عن هذه الموالاة "[1] ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[النساء:١١٩] : " قوله : (من دون الله) قيد لازم لأنه لا يمكن أن يتخذ الشيطان وليًّا إلا إذا لم يتخذ الله وليًّا ، ولا يمكن أن يتخذ الشيطان وليًّا ويتخذ الله وليًّا لأنهما طريقان متباينان لا يجتمعان هدى وضلالة "[2] فذلك تمام المغايرة .

" صعيدًا " : يشير العنصر الإشاري " صعيدًا " في قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا }[النساء:٤٣] إلى وجه الأرض فحيثما وُجِد المتيمِّم في أي جزء منه فهو صعيده الصالح للتيمُّم وعلى ذلك فـ " صعيدًا " ظرف مكان وقيل هو التراب وعلى ذلك فـ " صعيدًا " مفعول به بتقدير حذف الباء أي " بصعيد " [3].

" عند " : ظرف المكان القريب الذي يفيد أن مظروفه[4] :

أ- حاضر حسًّا نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾[النمل:٤٠] .

ب- حاضر معنًى نحو قوله تعالى : ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾[النمل:٤٠]

ج- قريب حسًّا نحو قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾[النجم: ١٤ – ١٥] .

د- قريب معنًى نحو قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾[التحريم:١١]

---

١ – البحر المحيط في التفسير : ١١٢/٤ .

٢ – السابق : ٧٣/٤ .

٣ – ينظر : الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٠٩ – ٢١٠ .

٤ – ينظر : التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل : ٦٩/٨ .

فالعندية المتمثلة في إضافة الظرف " عند " إلى اسم الجلالة مجاز لتعاليه سبحانه عن الجهة وتتعدد معاني تلك الظرفية المجازية بحسب السياق فمن ذلك عندية التدبير والتأثير في نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ ﴾[النساء:٧٨] فـ " مِن عندك " أي بسوء تدبيرك و" مِن عند الله " أي بقضائه[١] وجيء هنا بالظرف " (عند) للدلالة على قوة نسبة الحدث إلى الله ونسبة السيئة للنبيّ – صلى الله عليه وسلم – أي قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب ولما أمر الله رسوله أن يجيبهم قال (قل كلٌّ من عند الله) مشاكلة لقولهم وإعرابًا عن التقدير الأزلي عند الله "[٢] .

وعندية الادخار والثواب ومنها ﴿فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾[النساء:٩٤] وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[النساء:١٣٤] .

فإذا انتقلت العندية إلى غير الله تعالى فإن لها معاني أُخَر بحسب سياقها فهي عندية المنعة والقوة المزعومة في قوله تعالى : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٣٩] في إشارة إلى وَهْم هؤلاء وضلالهم[٣] .

" فوق " : اسم للمكان المعتلي على غيره حقيقة نحو قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ [النساء:١٥٤] إذ يُذكر أنه جبل كانوا في أصله فرفعه الله تعالى

---

١ – ينظر : معاني القرآن للفراء :٢٧٨/١ ، الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٥٠ .

٢ – التحرير والتنوير : ١٣٤/٥ .

٣ – تفسير الطبري : ٦٠١/٧ .

فوقهم كأنه ظلة وكان فيما يلي التيه من جهة ديار مصر في إشارة إلى جحد هؤلاء ونُكرهم وعقابهم فما زادهم في الظاهر آية إلا زادوا جحدًا ونُكرا [١] .

" ويستعمل مجازًا في المتجاوز غيره في صفة تجاوزًا ظاهرًا تشبيهًا بظهور الشيء المعتلي على غيره على ما هو معتلٍ عليه ، فـ " (فوق) في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو من المذامّ "[٢] فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء:١١] لأن المعنى زائدات على اثنتين لا الفوقية الحقيقية وأصل ذلك مجاز ثم شاع حتى صار كالحقيقة [٣].

" لدن " : تكون لأول غاية زمان نحو: لدن غُدوة وما رأيته من لدن ظُهْر الخميس، أو مكان ومنه ﴿ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ﴾[طه:٩٩] أي من جهتنا ونحونا وأكثر مجيئها بـ "مِن"[٤] ، وإضافتها في السورة الكريمة إلى ضمير اسم الجلالة ، ولأنها مثل " عند " اسم مكان قريب فحقيقتها مستحيلة على الله تعالى فاستعمالها مجاز في اختصاص المضاف إليها بموصوفها تنويهًا بشأنه فتشير إلى القرب الاعتباري والتفضُّل ، في قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٠] وقوله تعالى : ﴿وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا

---

١ – ينظر:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١٨٣/٣، البحر المحيط في التفسير : ١٢٢/٤

٢ – حمدي بدر الدين إبراهيم (الدكتور) ، الظرفية المجازية وآثارها الدلالية في القرآن الكريم : ٢٩٧ ، مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية ، مج ١٧ ، ع ١٧ ، ٢٠١٨ م

٣ – ينظر : تفسير الطبري : ٤٦٠/٦ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١/ ٤٣٠ ، التحرير والتنوير : ٢٥٨/٤ .

٤ – ينظر : التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل : ٧٠/٨ – ٧١ .

أَجْراً عَظِيمًا ﴾[النساء:٦٧] ويحمل القرب الاعتباري في طيّاته إشارة أخرى إلى مكان حقيقي هو الجنة ، وإلى القرب الاعتباري والرغبة في نيل شرف الرتبة في قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء:٧٥]

" مع " : من الظروف العادمة التصرف وهي للصحبة اللائقة بالمذكور " اسم لمكان الاصطحاب أو وقته على حسب ما يليق بالمصاحب ... دالًا على حضور وعلى قرب فالحضور ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:١١٨] والقرب كـ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٦] "[1].

وتختلف الإشارة المكانية التي تحملها من سياق لآخر ففي قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم ﴾[النساء:٦٩] إشارة إلى الجنة ؛ فـ " معنى أنهم معهم أنهم في دار واحدة ومتنعَّم واحد وكلُّ مَن فيها رُزق الرضا بحاله وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضول وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أهل الجنة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم وعلى قدر فضل الله على مَن يشاء " [2] ، ويشير العنصر الإشاري " مع " في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾[النساء:٧٢] إلى الحضور في المعركة وقد تشير إلى الشهادة نفسها والمعنى إذ لم أكن شهيدًا مع شهدائهم[3] وكذا في قوله تعالى : ﴿ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيمًا ﴾[النساء:٧٣] يشير إلى أرض المعركة .

---

١ – السابق : ٧٨/٨ .

٢ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٧٦/٢ ، وينظر : التحرير والتنوير : ١١٦/٥ .

٣ – ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٧٨/٣ .

و " مع " في قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء:١٤٦] لإفادة المصاحبة التي تحمل معنى المكانية في طيّاتها فأولئك مصاحِبون للمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة ، وتفيد البعد الاعتباري عند آخرين وذلك أن الله تعالى حادَ عن كلامهم غضبًا عليهم فقال (مع المؤمنين) ولم يقل هم المؤمنون[١] ، وتشير إلى مجالس المنافقين والكفار إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها في قوله تعالى : ﴿فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ ﴾[النساء:١٤٠] فالنهي عن مجالسة هؤلاء ليظهر التمايز بين المسلمين الخُلَّص والمنافقين .

والمعية في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾[النساء:١٠٢] معية الصلاة[٢] ، أما في قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾[النساء:١٠٨] فمعية العلم والرؤية والسمع ولا مجال لما قالت الجهمية والقدرية والمعتزلة أنه تعالى بكل مكان فهذه صفة الأجسام والله تعالى متعالٍ عن ذلك[٣] .

" مكان " : الظرفية هنا مجازية في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾[النساء:٢٠] إذ تشير إلى إقامة امرأة ترغبون فيها مكان امرأة ترغبون عنها [٤].

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٦٢٢/١ .

٢ – ينظر : التحرير والتنوير : ١٨٥/٥ .

٣ – ينظر : الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٣٣٠ .

٤ – ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٤٥٢/٢ .

" وراء " : ضد أمام لأن " الوراء هو الجهة التي هي جهة ظهر ما يضاف إليه"[١] وتدل على المكان حقيقة في نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾[النساء:١٠٢] فالضمير في (سجدوا) للطائفة التي مع النبيّ عليه السلام والضمير في (فليكونوا) للطائفة الأخرى و" الجواب هو (فليكونوا من ورائكم) متعين لفعل الطائفة المواجهة للعدو "[٢] .

ويستعمل مجازًا بمعنى غير، ودون ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٤] أي ما سوى ذلكم ، أو أُحلّ لكم ما دون الخَمْس أو مَن سمّى لكم تحريمه من أقاربكم ، فالكلام تمثيل لحال المخاطبين بحال السائر يترك ما وراءه ويجتازه [٣].

ثالثا : اسم المكان

ومن ذلك :

مُدْخَل / مَدْخَل : في قوله تعالى : ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾[النساء:٣١] في إشارة إلى الجنة أو الدخول إليها فعلى الضم إما مصدر ومفعول نُدخلكم محذوف في إشارة إلى دار الجزاء أي ندخلكم الجنة إدخالًا أو مكان منصوب على الظرف عند سيبويه وعلى أنه مفعول به عند الأخفش – على الخلاف في نصب المكان المختص بعد دخل – وكذلك نصبه على الفتح بتقدير نُدخلكم فتدخلون – ورجّح حملَه على المكان وصفُه

---

١ – التحرير والتنوير : ٨/٥ .

٢ – السابق : ١٨٦/٥ .

٣ – ينظر : معاني القرآن للفراء : ٢٦١/١ ، تفسير الطبري : ٥٨١/٦ – ٥٨٢ ، التحرير والتنوير : ٨/٥ .

بقوله سبحانه (كريمًا) وقد جاء في القرآن العظيم وصف المكان به[١] ، ويذكر الفراء أن فتح الميم ينقله إلى معنى الدار والبيت[٢] فيشير بذلك إلى المكان المخصوص في الجنة الذي نجده في قوله تعالى : ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُم﴾[محمد:٦] .

" مواضع " : مما يحتمل الظرفية المجازية والحقيقية في قوله تعالى : ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[النساء:٤٦] في إشارة إلى قدسية الكلم وإحكام مواضعه وجرم هؤلاء فإذا كان " (يحرِّفون) بمعنى يُزيلون كان كناية لأنهم إذا بدّلوا (الكلم) ووضعوا مكانه غيره لزم أنهم أمالوه عن مواضعه وحرّفوه والفرق بين ما هنا وما يأتي في سورة المائدة من قوله سبحانه (من بعد مواضعه) أن الثاني أدل على ثبوت مقارّ الكلم واشتهارها مما هناك وذلك لأن الظرف يدل على أنه بعدما ثبت الموضع وتقرر حرفوه عنه "[٣] ويذكرون من ذلك " تحريفهم أسمر ربعة في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم : الحدّ بدله " [٤] وقيل معنى (يحرِّفون) يتأولونه على غير تأويله وقيل (عن مواضعه) يعني صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

" مأوى" : في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[النساء:١٢١] في إشارة إلى مستقر المشركين في الآخرة ، إذ " أخبر تعالى أن المكان الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو جهنم وأنهم لا يجدون عنها مراغا

---

١ – ينظر : روح المعاني : ١٩/٣ ، معاني القرآن للأخفش : ٢٥٣/١ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٢/١ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ٢١٥ ، التحرير والتنوير : ٢٧/٥ .

٢ – ينظر : معاني القرآن للفراء : ٢٦٤/١ .

٣ – روح المعاني : ٤٦/٣ .

٤ – الكشاف : ٢٣٩/٤ .

يروغون إليه "[١] ومثل ذلك " مصيرًا " في قوله تعالى : ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥] أي " موضعا يصير إليه مَن صار إليه "[٢] .

"المُراغَم" : وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[النساء:١٠٠] أي " يجد مكانًا يُرْغِم فيه من أرغمه أي يغلب فيه قومه باستقلاله عنهم كما أرغموه بإكراهه على الكفر"[٣] ، والمراغم : المذهب والحصن والمضطرب فهو اسم مكان في إشارة إلى أن المهاجر يرغم أنف قومه أي يذلهم والرغم : الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرَّغام (بفتح الراء) وهو التراب[٤] ويحمل ذلك العنصر الإشاري إشارة أخرى هي رفاهية عيش المهاجر ترغيبًا في ذلك بدليل عطف (سعة) عليها وهي سعة مجازية .

رابعا : الصيغ المكانية المجردة

" السبيل ": من ألفاظ الخطاب القرآني التي تتعدد مرجعيتها والمراد منها بين الحقيقة والمجاز بما يوضح تداوليتها في الاستعمال القرآني ، فقد يشير إلى المكان حقيقة ويصبح عنصرًا إشاريًّا ذا مرجعية متعددة فيراد به " الطريق " حقيقة في نحو قوله تعالى ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[النساء:٣٦] فالسبيل الطريق وابن السبيل المسافر أو

---

١ – البحر المحيط : ٧٣/٤ ، وينظر : تفسير الطبري : ٥٠٥/٧ .

٢ – تفسير الطبري : ٤٨٤/٧ .

٣ – التحرير والتنوير : ١٨٠/٥ .

٤ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٩٦/٢ .

الضيف الذي لم يصل إلى مقام بعد، نُسب إليه لمروره عليه ولزومه إياه[1] في إشارة إلى غربته وحاجته إلى الإحسان .

ويشير إلى المسجد في قوله تعالى﴿ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾[النساء:٤٣] فالمراد في بعض التأويلات عبور المسجد في إشارة إلى تشريف المكان والصلاة وتقديسهما وكذلك إذا أُريد به الطريق في تأويل آخر يرى أن المراد " إلا مسافرين"[2].

وقيل إن السبيل في قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلا﴾[النساء:٩٨] "سبيل المدينة "[3] أي لا يستطيعون نهوضًا إلى المدينة في إشارة إلى الهجرة .

وقد يراد به الطريق مجازًا فهو طريق معنوي فتتعدد كذلك مرجعيته فقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾[النساء:٣٤] أي : لا تبغوا عليهن عِللًا أو لا تطلبوا طريقًا إلى التعدي عليهن أو تظلموهن بطريق من الطرق بالأذى الفعلي أو التوبيخ اللساني[4] ويختص الخطاب القرآني ببعض المزدوجات المكانية كالجنة / النار ، والسموات / الأرض ، وسبيل الله / سبيل الطاغوت ومنها : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[النساء:٧٦] فـ " في سبيل الله " هنا تعني في

---

١ – ينظر : روح المعاني : ٢٩/٣ ، تفسير القرطبى : مج٣ / ج٥ : ١٧ .

٢ – ينظر: معاني القرآن للفراء : ٢٧٠/١ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٩/١ ، تفسير القرطبي : مج٣ / ج٥ : ١٨٥ .

٣ – ينظر : فتح القدير : ٥٩٦/١ .

٤ – ينظر : معاني القرآن للفراء : ٢٦٥/١ ، روح المعاني : ٢٦/٣ .

طاعته [١] وهو " اتباع محمد "[٢] – صلى الله عليه وسلم – في قوله تعالى : ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾[النساء:١٦٠] وهو "المنهاج "[٣] في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾[النساء:١١٥] وهو " الدين والرشاد " في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلا ﴾[النساء:٥١] أي " أقوم دينًا وأرشد طريقة"[٤] ومثل ذلك في إشارته إلى المكان مجازًا كلمة "الطريق" في نحو قوله تعالى: ﴿ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾[النساء:١٦٨ – ١٦٩] في إشارة إلى ضلالهم وكفرهم .

" الأرض " : يتكرر العنصر الإشاري " الأرض" وتتعدد معانيه التأشيرية بتعدد السياقات ومنها قوله تعالى :﴿ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾[النساء:٤٢] في إشارة إلى أرض المحشر فالمعنى " يودون أن يمشي عليهم أهل الجمع يطؤونهم بأقدامهم كما يطؤون الأرض "[٥] وقد يراد بها قبورهم والمعنى يودون لو لم يُبعثوا لأنهم لو لم يبعثوا لكانت الأرض مستوية عليهم لأنهم من التراب نُقلوا .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[النساء:٩٧] يحيل العنصر الإشاري " الأرض " الوارد أولًا إلى (مكة) قبل الهجرة

---

١ – ينظر : الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ٢٤٦ .

٢ – ينظر : فتح القدير : ٦٢٩/١ .

٣ – ينظر : تفسير الطبري : ٤٨٤/٧ .

٤ – ينظر : روح المعاني : ٥٤/٣ .

٥ – السابق : ٣٤/٣ ، وينظر الكشاف : ٢٣٧/٤ ، الجامع لأحكام القرآن : مج٣ / ج٥ : ١٧٨ .

حيث كانوا مقهورين فيها والوارد ثانيًا يحيل إلى (المدينة) أرض الهجرة وذلك بمراعاة سبب النزول وقد يحيل ذلك العنصر في الموضعين إلى عموم البلاد والأقطار اعتبارًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيراد بالأرض الأولى : كلّ أرض ينبغي الهجرة منها وبالثانية : كل بقعة من بقاع الأرض تصلح للهجرة إليها[1] وكذلك في الآية (١٠٠) يراد بها عموم البلاد والأقطار التي تصلح للهجرة وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَاةِ ﴾[النساء:١٠١] "المراد من الأرض ما يشمل البر والبحر والمقصود التعميم أي إذا سافرتم في أي مكان يسافر فيه"[2].

" البيت " : ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾[النساء:١٥] في إشارة إلى مقارّ هؤلاء أو محبِسهن فإن أريد بالإمساك الحدّ فهو المحبس وإن أريد إمساك لهن بعد أن يحدهن الإمام صيانة لهن فالمراد مقارّهن على قولين[3] ومعنى أن " البيت " عنصر إشاري هنا أنه يصلح إطلاقه على كلٍّ منهن مع اختلافه من مكان لآخر يقول الفراء : " كنّ يحبسن في بيوت لهن إذا أتين الفاحشة "[4] قبل نسخ الآية فـ " أل " هنا ، بمعنى الضمير ، وهنّ مركز ضبط الإشارة المكانية .

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٥٩٦/١ .

٢ – روح المعاني : ٣ / ١٢٦ .

٣ – ينظر : البحر المحيط في التفسير : ٥٥٨/٣ .

٤ – معاني القرآن للفراء : ١/ ٢٥٨ .

وينصرف العنصر الإشاري في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[النساء:١٠٠] إلى دار الشرك أو كلّ دار يُعمل فيها بمعاصي الله [١].

" الديار " : وذلك في قوله تعالى :﴿ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم ﴾[النساء:٦٦] في إشارة إلى ملاذ المخاطبين التي ركنوا إليها وخيّموا فيها وعكفوا عليها[٢] .

" القرية " : والمراد بها مكة – زادها الله تشريفًا – في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[النساء:٧٥] في إشارة إلى توقيرها فكلّ قرية ذُكرت في القرآن فالظلم يُنسب إليها بطريق المجاز إلا في هذا الموضع نُسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة توقيرًا لها عن نسبة الظلم إليها[٣].

" بروج مُشيَّدة ": وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء :٧٨] أي قصور وقيل بروج السماء المعلومة وقيل البيوت التي فوق القصور وقيل الحصون والقلاع[٤] في إشارة إلى إدراك الموت لهؤلاء وإن اجتهدوا في طلب المنعة والتحصن من أسبابه .

" ذو القربى " : تحمل كلمات من نحو القربى والجُنُب والجَنْب تأشيرًا مكانيًا عندما توحي بالقرب والبعد المكانيَّين ، فقد فُسِّر " الجار ذو القربى" في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾[النساء:٣٦] بأنه " الذي قرب جواره (والجار الجُنُب) أي البعيد : وهي على هذا مكانية ويحتمل أن

---

١ – ينظر : فتح القدير : ٥٩٧/١ .

٢ – ينظر : روح المعاني : ٨٢/٣ .

٣ – ينظر : السابق : ٨٠/٣ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦١/٢-٦٢ .

٤ – ينظر : روح المعاني : ٨٥/٣ ، المحرر الوجيز : ٨٠/٢ – ٨١ .

يراد بالجار ذي القربى مَن له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وبالجار الجُنُب الذي لا قرابة له "[1] فالقرب والبعد على ذلك معنويان والكلّ يشير إلى ضرورة الإحسان إلى هؤلاء وقد رأى آخرون أن " القربى" لا تُعرف في القرب المكاني وأن تفسيرهم الجار ذي القربى بقريب الدار والجُنُب بعيدها بعيد[2] .

خامسا : الظرفية المكانية بذكر " في " أو بتقديرها

يُعرف حرف الجر " في " بحرف الظرفية سواء أكانت مقدرة في الظرف أو كان الظرف مجرورًا بها لذا فإن المجرور بها إن دلّ على مكان – حقيقة أو مجازًا – فإنهما معًا يمثلان عنصرًا تأشيريًّا للمكان، ومما تُحتمل فيه الظرفية الحقيقية والمجازية قوله تعالى :﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾[النساء:٣٤] في إشارة إلى الجماع فقد كنى بذلك عنه تأثّمًا عن ذكره على عادة العرب في ذلك وقيل (في) ظرف للهجران أي اهجروهن في المبايت أو اهجروا حجرهن ومحلّ مبيتهن[3] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم ﴾[النساء:٢٣] في إشارة إلى الكنف والمنعة وتقوية علة الحرمة فـ " الحجور جمع حجر (بالفتح والكسر) وهو في اللغة حضن الإنسان وأعني ما دون إبطه إلى الكشح وقالوا فلان في حجر فلان أي في كنفه ومنعته وهو المراد في الآية"[4] وقوله تعالى :﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[النساء:١٣١] تمثل " السموات" و"الأرض" ظرفًا للمخلوقات في إشارة إلى

---

١ – السابق : ٢٨/٣ ، وينظر : معاني القرآن للأخفش : ٢٥٧/١ ، الكشاف : ٢٣٦/٤ .

٢ – ينظر : التحرير والتنوير : ٥٠/٥ .

٣ – ينظر : السابق : ٢٥/٣ ، التبيان في إعراب القرآن : ٢٧٤/١ ، إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٨/٢ .

٤ – ينظر : روح المعاني : ٤٦٥/٢ .

توحيد الخالق وتفرده فذلك " إخبار لملكه بجميع مَن فيهن فيستغرق ملكه عيسى وغيره "[١] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾[النساء:١٤٠] فالقرآن أو الكتاب ظرف لكلام الله وقيل في هذه الآية " إن الذي أُحيل عليه هنا هو قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[الأنعام:٦٨] "[٢] فالظرفية حقيقية ، ومنها أيضًا :﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[النساء:١٤٥] في إشارة إلى مستقر هؤلاء من العذاب فـ " الدَّرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض والدركات بعضها أسفل من بعض"[٣] وإنما جُعلوا في الأسفل وهي دركات سبع في إشارة إلى عظيم الإثم وشدة العذاب .

ومن الظرفية المجازية بذكر " في " : قوله تعالى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾[النساء:٥] حيث " عدل عن تعدية ارزقوهم واكسوهم بـ " مِن " إلى تعديتها بـ " في " الدالة على الظرفية المجازية على طريقة الاستعمال في أمثاله حين لا يقصد التبعيض الموهم للإنقاص من ذات الشيء بل يراد أن في جملة الشيء ما يحصل به الفعل : تارة من عينه وتارة من ثمنه وتارة من نتاجه وأن ذلك يحصل مكررًا مستمرًا "[٤] فكأنه قيل : اجعلوها مكانًا لرزقهم في إشارة إلى الحرص على هؤلاء بحيث تكون النفقة من الأرباح لا من صلب المال .

---

١ – البحر المحيط في التفسير : ١٤٥/٤ وينظر : تفسير الطبري : ٥٧٨/٧ .

٢ – التحرير والتنوير : ٢٣٤/٥ .

٣ – البحر المحيط في التفسير : ١١٢/٤ ، وينظر : فتح القدير : ٦٢٢/١ .

٤ – التحرير والتنوير : ٢٣٦/٤ ، وينظر : الكشاف : ٢١٩/٤ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠] فالبطون مكان الأكل وإن كان بطريق المجاز المرسل لأن النار لا تؤكل وإنما يؤكل مسببها في إشارة إلى خسة هؤلاء واتّضاع أمرهم كما يُفهم من التعريض بذكر البطون لأن العرب تتذمم من ذلك[١] والمعنى : ملء البطون وكأنه مبنيّ على أن حقيقة الظرفية المتبادر منها الإحاطة بحيث لا يفضل الظرف عن المظروف فيكون الأكل في البطن ملء البطن وفي بعض البطن دونه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾[النساء:٦٥] فـ " في أنفسهم " يتعلق بـ " يجدوا " تعلُّق الظرف بالفعل "[٣] فكأن النفس ظرف يخلو من الضيق بل يمتلئ رضًا بحكم الله ورسوله في إشارة إلى سلامة الإيمان وصحته .

قوله تعالى : ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾[النساء:١٧٥] ظرفية مجازية أُطلق فيها الحالّ وأريد المحل فالرحمة لا يحل فيها الإنسان لأنها معنى إنما يحل في مكانها وهو الجنة[٤].

وتقدر "في" بعد الفعل " دخل " نحو قوله تعالى : ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [النساء:٥٧] فـ " جنات " مفعول به ثان على السعة أو منصوب بنزع الخافض والتقدير " في جنات " وفي بعض التأويلات لقوله تعالى : ﴿ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:٩٥] قيل : هو واقع موقع الظرف أي في درجة

---

١ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٦٢٤/١ .

٢ – ينظر : روح المعاني : ٤٢٥/٢ ، الكشاف : ٢٢٢/٤ .

٣ – ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ٢٨٤/١ .

٤ – ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه : ١٦٦/٢ .

ومنزلة ، وكذا قوله تعالى :﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾[النساء:٩٦] قيل التقدير : ذوي درجات وقيل في درجات[١] في إشارة إلى مكانة هؤلاء وقربهم الاعتباري .

١ – التبيان في إعراب القرآن : ٢٩٣/١ .

الخاتمة :

إنّ استقراء التعابير الإشارية في سورة النساء ضمن سياقاتها ينتهي بالدراسة إلى:

- أنّ تقابُل الإحالة تضاديّ مع الإشاريات، فالعنصر المحيل يرجع إلى السياق اللغوي بينما يرجع العنصر الإرشاري إلى السياق المقامي.
- أنّ التعابير الإشارية على اختلافها بدت متعالقةً بنيويًّا مع الحقول الدلالية الماثلة في السورة الكريمة ؛ فالحديث عن الحساب والجزاء ينقل الزمن إلى المستقبل والمكان إلى الجنة والنار، والحديث عن الرسل والأمم السابقة ينقل الزمن إلى المضيّ، والحديث عن الجهاد والهجرة يربط النص بالبيئة المكانية في مكة والمدينة وصفات الله تعالى تتضح فيها الظرفية المجازية من نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[النساء:٣٤] وكذا مع المخلوقات من نحو قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٣٤].
- أنّ المثلث الإشاريّ (الأنا، الهُنا، الآن) مُرْتَكَزٌ أساسٌ من مرتكزات بناء النص ويمثل عتبات نصية تساعد على تدرُّج الخطاب واستمراره فالانتقال من التكلُّم إلى الخطاب والتنقّل في الزمن من المضّيّ إلى الحال والاستقبال له دوره في سرد الأحداث وترتيبها.
- أنّ فهم المقام الإرشاري يساعد في فكّ شفرات النص والإحاطة بجوانب العملية التخاطبية والوصول إلى مقاصد المتكلم وفهم أبعاد الخطاب.
- أنّ الوقوف على الإشاريات وفهمها فهمًا صحيحًا يتطلب استرجاع الظروف التي أدت إلى إنتاج النص أي تحليل المقام الخارجي.
- أنّ متقدمي المفسرين المسلمين كانوا على وعي ببنية الخطاب مُلمّين بالعناصر المشاركة فيه؛ فقد احتكموا إلى الدليل اللغوي والعلمي والشرعي واعتمدوا على قرائن عقلية وعرفية ولفظية وزمنية وبيئية في تحديد مقاصد الخطاب.
- أنّ المقام وحده قد لا يستأثر بتفسير مرجعية ضمير الحاضر؛ فقد يعاونه في ذلك السياق اللغوي كالنداء والالتفات من الغيبة إلى الخطاب.
- أنّ المتكلم وإن تعددت ضمائره (للمفرد والجمع) فإنه في الحقيقة مفرد لاغير إذ لا يشاركه غيره في التكلّم لكنه قد يتكلم عن نفسه وعن غيره.

- أنّ للخطاب القرآني خصوصيته؛ فعلى حين تتعيّن العناصر الإرشارية وتتحدد بالقياس إلى زمان التكلُّم ومكانه فإن هذه العناصر ترتبط في الخطاب القرآني بأسباب النزول أولاً ثم تُعَمَّم الأحكام على سائر الأزمان والأماكن والأشخاص.
- أنّ دلالة الإشاريات الزمانية والمكانية قد اتسعت للتعبير عن التأشير الحقيقي والمجازي كذلك فأسهمت في نقل الغرض والمغزى كالتعظيم والتحقير والتعبير عن القرب والبُعد النفسيَّيْن.
- أنّ للسياق المقامي الدور الأول في تعيين مرجعية هذه العلامات المبهمة وإبراز المراد منها وخاصة المقام التفسيري المرتبط بأسباب النزول وتعميم الأحكام .

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر والمراجع العربية :

- القرآن الكريم .

١ - الآلوسي (أبو الفضل شهاب الدين ت ١٢٧٠هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ضبطه وصحّحه علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢ - الأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مسعدة ت ٢١٥هـ) ، معاني القرآن ، تحقيق د/ هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ه – ١٩٩٠م.

٣ - الأزهر الزناد ، نسيج النص ، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا ، المركز الثقافي الوطني ، الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

٤ - بدوي طبانة (الدكتور) ، معجم البلاغة العربية ، دار المنارة – جدة ، دار الرفاعي – الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٥ - البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ) ، تفسير البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرّج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون ، دار طيبة – الرياض ، ١٤١٢هـ .

٦ - تمام حسان (الدكتور) ، اللغة العربية معناها ومبناها ، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨ه – ١٩٩٨م .

٧ - ابن تيمية ، التدمرية ، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدَر والشرع ، تحقيق محمد بن عودة السعودي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٨ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ) ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٩ - جاسم الفارسي (الدكتور) ، آيات (قل) في القرآن الكريم المعنى والدلالة دراسة تداولية ، دار ناشري للنشر الإلكتروني WWW.Nashiri.net ، شوال ١٤٤٢هـ / يونيو ٢٠٢١ .

١٠ - جميل حمداوي ، التداوليات وتحليل الخطاب ، مكتبة المثقف – الجزائر ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٥م .

١١ - ابن جني، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية ، د. ت .

١٢ - جورج يول ، التداولية ، ترجمة د / قصيّ العتابي ، دار أمان – الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٣ - أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف ت ٧٥٤هـ) البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل ، الشيخ زهير جعيد ، دار الفكر– بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٠م .
١٤ - ابن الخشاب ، المُرْتَجَل ، تحقيق علي حيدر ، دمشق ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
١٥ - ذهبية ، حمو الحاج ، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب ، الأمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ٢٠١٢ .
١٦ - الرازي (الإمام محمد الرازي فخر الدين، ت ٦٠٤هـ) ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، دار الفكر ، د. ت .
١٧ - روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة د / تمام حسان ، عالم الكتب – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
١٨ - الزَّجّاج ، إعراب القرآن المنسوب إليه ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري – القاهرة ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، د. ت .
١٩ - الزَّجّاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٤٠ه) الجمل في النحو ، تحقيق د / علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
٢٠ - الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه خليل مأمون ، دار المعرفة الجامعية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م .
٢١ - ابن السراج ، الأصول في النحو ، تحقيق د / عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
٢٢ - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر ت ١٨٢هـ)) الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الأولى ، د. ت .
٢٣ - السيوطي،همع الهوامع، تحقيق د/عبد الحميد هنداوي،المكتبة التوفيقية- القاهرة، د.ت.
٢٤ - الشريف الجرجاني (علي بن محمد ت ٨١٦ هـ) ، كتاب التعريفات ١٤٧ ، مكتبة لبنان – بيروت ، ١٩٨٥م .

٢٥ - الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ) ، فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٢٦ - الصاوي المالكي (أحمد بن محمد ت ١٢٤١ه) ، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، راجع تصحيحها الشيخ علي محمد الضبّاع ، دار الجيل – بيروت ، الطبعة الأخيرة ، د.ت .

٢٧ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير، ت٣١٠)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، د/ عبد السند حسن يمامة ، هَجَر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٢٨ - عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد – بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

٢٩ - العثيمين (الشيخ محمد بن صالح) ، شرح ألفية ابن مالك ، مكتبة الرشد – ناشرون ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ .

٣٠ - ابن عطية الأندلسي (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٦هـ) ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، طبعة محققة عن نسخة آيا صوفيا – استانبول رقم (١١٩) المحفوظة صورتها في مكتبة مرعَشى نجفي– قمّ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ .

٣١ - العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ه – ١٩٩٧م .

٣٢ - ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا) ، مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل – بيروت ، د.ط ، د.ت .

٣٣ - فرانسواز آرمينكو ، المقاربة التداولية ، ترجمة د. سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ، ١٩٨٦.

٣٤ - الفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧هـ) ، معاني القرآن ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار السرور ، د.ت .

٣٥ - الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، دار الجيل – بيروت ، د.ت .

٣٦ - القاسم بن حسين الخوارزمي (ت ٦١٧هـ) ، ترشيح العلل في شرح الجمل ، تحقيق عادل العميري ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ .

٣٧ - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، علّق عليه د . إبراهيم الحفناوي ، خرّج أحاديثه د. محمود حامد عثمان ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

٣٨ - القزويني الخطيب (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن) ، التلخيص في علوم البلاغة ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٠٤م.

٣٩ - القشيري (الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان ت ٤٦٥ه) ، تفسير القشيري المسمَّى لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

٤٠ - كمال رشيد ، الزمن النحوي في اللغة العربية، دار عالم الثقافة ، ١٤٢٨ه– ٢٠٠٨م.

٤١ - ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) ، شرح التسهيل، تحقيق د / عبد الرحمن السيد ، د/ محمد بدوي المختون ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ه.

٤٢ - المبرد ، المقتضب ، تحقيق عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٣ - محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ .

٤٤ - محمود بن حمزة الكرماني ، غرائب التفسير وعجائب التأويل ، تحقيق الدكتور / شمران سركال يونس العجلي ، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة ، مؤسسة علوم القرآن – بيروت ، د.ت .

٤٥ - محمود عكاشة (الدكتور) ، تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم ، دار النشر للجامعات – القاهرة ، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٤٦ - محمود نحلة (الدكتور) ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٦.

٤٧ - محيي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، دار ابن كثير- بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٤٨ - المرادي (الحسين بن قاسم) ، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق د .فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٩ - ابن المعتز:(أبو العباس عبد الله بن المعتز) ، البديع ، شرحه وحققه عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٥٠ - ابن منظور، لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف – القاهرة ، د.ت .

٥١ - منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة – القاهرة ، الطبعة السابعة، د.ت.

٥٢ - النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ت ٣٣٨هـ) ، إعراب القرآن، اعتنى به الشيخ خالد العلي ، دار المعرفة الجامعية – بيروت،الطبعة الثانية،١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥٣ - نعمان بوقرة ، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، عالم الكتب الحديث ، جدارا للكتاب العالمي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩م.

٥٤ - النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القميّ) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦.

٥٥ - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية- بيروت ،١٤١٦-١٩٩٦.

٥٦ - أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ -١٩٥٢م .

٥٧ - ابن يعيش ، شرح المفصل ، المكتبة التوفيقية ، د.ت .

الدوريات :

٥٨ - توفيق ، أحمد محمود زكريا ، الإشاريات التداولية وتجلّياتها في التفسير نماذج من سورة الأنفال، ضاد – مجلة لسانيات العربية وآدابها ، المجلد ٢ ، العدد ٣ ، أبريل ٢٠٢١ .

٥٩ - حمدي بدر الدين إبراهيم (الدكتور) ، الظرفية المجازية وآثارها الدلالية في القرآن الكريم ، مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية ، المجلد ١٧ ، العدد ١٧ ، ٢٠١٨ م.

٦٠ - محمد ماهر عبد الرحمن (الدكتور) ، مرجعيّة الضمير في سورة الجن ، دراسة لغوية، مجلة كلية الآداب – جامعة بور سعيد ، العدد الثامن ، يوليو ٢٠١٦ .

مراجع أجنبية :

٦١ - Formkin , V .& Rodman , R (١٩٩٨) : An Introduction to language Harcourt Brace collage publishers . U.S.A